أيها الشهداءُ إنّا قادمون

مسرحيةٌ تركيةٌ تعبّر عن معاناةِ المسلمين الأتراكِ
في بلغاريا، والظُّلم الذي يتعرّضون له
وآمالِهم في الخلاص.

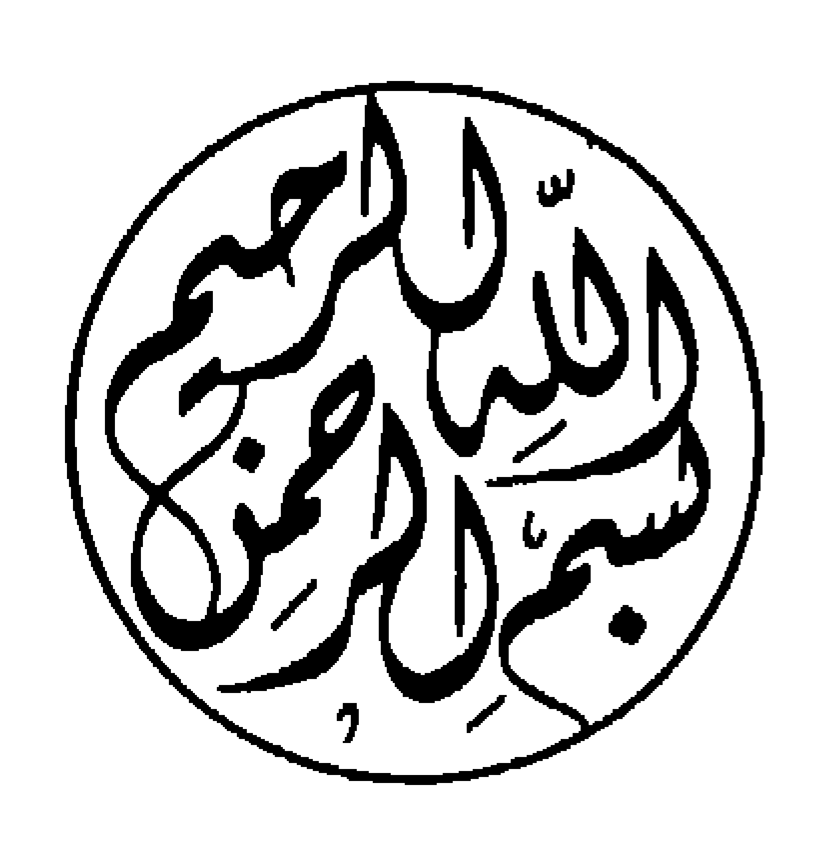
تأليف
رمزي أوزجليك

تقديم وترجمة
الدكتور محمّد حرب

الدّار الشّاميّة
بيروت

دار القلم
دمشق

أيها الشهداء إنا قادمون


بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشهداء إنا قادمون

مسرحية تركية تعبر عن معاناة المسلمين الأتراك
في بلغاريا، والظلم الذي يتعرضون له
وآمالهم في الخلاص.

تأليف

رمزي أُوجِلِيك

تقديم وترجمة

الدكتور محمد حرب

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١

الإهداء

عندما ابتُعثتُ إلى إستانبول عام ١٩٧٤م، تعرَّفتُ بطالب تركي، تطوَّع وعرَّفني بإستانبول الثقافة والتاريخ، وعلَّمني، ووعّاني بدور العثمانيين الحضاري، وقدَّمني إلى أهل العلم والفضل هناك، ومنحني من معرفته ومن وقته الكثير، وكنت أحتاج إلى ذلك.

فإليه.. إلى:

سليمان زكي باغلان

أهدي هذا الكتاب.. تحية وعرفاناً بفضله.

المدينة المنوَّرة

١٠ رمضان ١٤٠٩هـ

(إبريل ١٩٨٩م)

الدكتور محمد حرب

مسرحية

أيها الشهداء .. إنا قادمون

التقديم

الإسلام وبلغاريا

(أ) بلغاريا:

بلغاريا دولة صغيرة، تشرف على البحر الأسود، تبلغ مساحتها ١١٠,٩٢٨ كم٢، أي: أكبر من مساحة الأردن بقليل. ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من تسعة ملايين نسمة حسب إحصاء ١٩٨١م. وتبلغ نسبة عدد المسلمين فيها، تبعاً لنفس الإحصاء، ١٧٪ من مجموع السكان؛ وعاصمتها: صوفيا[1].

تحدُّ بلغاريا شمالاً رومانيا، وغرباً يوغوسلافيا، وجنوباً تركيا واليونان، وشرقاً البحر الأسود. ومن مدنها المعروفة أيضاً: بلوفديف، وستارازا غورا، وڤارنا؛ ومن قصباتها: بورغاز، ويان بولو. وهاتان الأخيرتان هما مسرح أحداث هذه المسرحية التي بين أيدينا.

ويبلغ عدد المسلمين في بلغاريا، تبعاً للإحصاء السابق الذكر، مليون و ٤٥٠ ألف نسمة. ويتزايد نسل المسلمين بحيث يصلون اليوم (١٩٨٩م) إلى مليونين ونصف مليون نسمة.

---

(١) محمود شاكر: المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، ص ١٣٢، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٢م.

(ب) صلة بلغاريا بالإسلام:

وترجع صلة الإسلام ببلغاريا، عندما فتح العثمانيون مدينة بلوفديف عام ١٣٦٣م، ثم فتحوا صوفيا عام ١٣٨٥م. ولم تصل سنة ١٣٩٣م حتى كانت بلغاريا كلها تحت الحكم العثماني[١].

• • •

وفي سنة ١٨٧٨م، اضطرت الدولة العثمانية، تحت تأثير الضغط الروسي، إلى إعطاء الحكم الذاتي لإمارة الروملي، ومقاطعة شرق الروملي، وتوحّدت هاتان الإمارتان سنة ١٨٨٥م، ثم أعلنت استقلالها عن الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨م تحت اسم بلغاريا، وكوّنت مملكة قائمة بذاتها. وبذلك يكون الحكم الإسلامي قد دام ٥٤٥ سنة في جنوب بلغاريا، و ٥١٥ في شمالها.

وفي الحرب العالمية الأولى، انحازت بلغاريا إلى ألمانيا وانهزمت معها، فتقلّصت مساحة بلغاريا من جرّاء ذلك. وفي الحرب العالمية الثانية، تحالفت بلغاريا مع الألمان أيضاً، وانهزمت مع هزيمة ألمانيا، فغزاها الروس عام ١٩٤٤م، وفي عام ١٩٤٦م سيطر فيها الشيوعيون على الحكم، فألغَوا الملكية وأقاموا جمهورية شيوعية، وهذا هو الزمن

(١) محمد حرب: الانتفاضة الإسلامية في بلغاريا، جريدة «المسلمون» الدولية في ٢١ ــ ٢٧ يوليو ١٩٨٩م، وأضواء الأنباء، جريدة رسمية تصدر باللغة العربية وبعض لغات أخرى، من أنقرة، عدد أول يونيو، ١٩٨٩م.

الذي جرت فيه أحداث هذه المسرحية التي بين أيدينا[1].

ويكثر مسلمو بلغاريا في المناطق التي تحدُّ مقدونيا في يوغوسلافيا، والتي تحدُّ اليونان وتركيا؛ وبهذا يكوِّن مسلمو بلغاريا حلقة في سلسلة مناطق متَّصلة ذات كثافة سكانية تمتد من إستانبول في الجنوب إلى ما يقارب زَغْرب في الشمال[2].

• • •

---

(١) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢١١، دمشق، ١٩٨٩م. وعلي الكتاني، المسلمون في أوروبا وأمريكا، المجلد الأول، ص ١٣٢، ١٩٧٦م. كما يمكن الرجوع في تفصيل العلاقات بين المسلمين وبلغاريا في المصادر التركية ــ وإذ أنّ هذا المجال ليس مجال التفصيل ــ مثل «مفصل عثمانلي تاريخي»، الجزء الأول، ص ١٢٥ وما يليها، إستانبول، دون تاريخ صدوره.

(٢) علي الكتاني: ص ١٣٣.

الأصل التاريخي للمأساة التي تناولتها المسرحيّة

وعد الحزب الشيوعي البلغاري المسلمين أثناء الحرب العالمية الثانية، إنصافهم في الحكم وإعطاءهم الحريات الكاملة في مجال الدين والعبادة، ولكنه تنكّر لهذا الوعد بعد أن وصل إلى الحكم، وبدأ حملة إبادة ضدّ المسلمين، أعدَّ لها مخططاً رهيباً. ففي باديء الأمر عملت الحكومة الشيوعية البلغارية على إجبار المسلمين على الهجرة إلى تركيا، وفعلاً هاجرت أعداد كبيرة، ولكن تنبَّه الشيوعيون أصحاب السلطة أنَّ كثيراً من الفنِّيين وأصحاب الخبرات قد هاجروا، فأوقفت الهجرة واتبعت أسلوباً آخر، خاصة عندما لاحظت السلطات الشيوعية البلغارية أنَّ المسلمين يتزايدون بسرعة، فعمدت إلى القضاء على المسلمين باتِّباع عدة طرق، منها:

١ ــ تغيير أسمائهم الإسلامية بأسماء بلغارية مسيحية، إذ يُعطى وليّ أمر الأسرة قائمة بأسماء بلغارية مختلفة وعليه أن يختار منها لنفسه أولاً ولبقية أفراد الأسرة، ويُسجَّل رسمياً بالاسم الجديد.

٢ ــ لا تُصرَف رواتب العمال والموظَّفين المسلمين، ولا يُصرَف تقاعد العجزة والأرامل إلاَّ بعد تغيير أسمائهم الإسلامية.

٣ ــ لا يُسجَّل طلّاب جُدد في المدارس ولا طلّاب قُدامى، ولا يُنقلون للصفوف القادمة إلّا بعد تغيير أسمائهم، ويُفصل كل من يرفض ذلك القرار.

٤ ــ تُجبَر النساء المسلمون على الابتعاد عن الزيّ الإسلامي، ويؤمرن بلبس الزيّ القصير كبقية البلغاريات.

٥ ــ يُمنع المسلمون من دفن موتاهم في مقابر خاصة بهم، كما كان ذلك متّبعاً في الماضي.

٦ ــ يُمنع الدفن بالطريقة الإسلامية.

٧ ــ يُمنع المسلمون من الأعياد والمناسبات الإسلامية، ومن صوم رمضان وإقامة الصلاة، إذ كلما مات إمام أُقفِل مسجده أو هُدِم(١).

٨ ــ إلغاء المدارس التركية وأنظمتها التعليمية جميعها، ودمجُها بالمدارس البلغارية، وتعيين المدرِّسين المسلمين معلِّمين بالمدارس البلغارية، وصدور الأوامر لهم بأن يقوموا بتدريس اللغة البلغارية(٢).

وقد اتَّبعت الحكومة البلغارية أبشع الوسائل ضدّ كل من عارض تلك القرارات، فأُبيدوا داخل السجون البلغارية التي تُقام تحت

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٣٤، ومحمد حرب، الانتفاضة الإسلامية في بلغاريا، المرجع سبق ذكره.

(٢) محمد حرب: العثمانيون، ص ٢١٣.

الأرض، وقُتلوا بـالغازات السـامـة والكهـربـاء ذات الضغط العـالي، وبالرصاص في الجبال، وما زالت السجون البلغارية مليئة بالمسلمين بعد أن قُتل منهم من قُتل من نساء وأطفال وشيوخ. وغير واضح حتى الآن مـوقف الحكومـة الديمقـراطية الجـديدة في بلغـاريا من هؤلاء المسلمـين السجناء[1].

• • •

وموضوع هذه المسرحية لم يكن حصيلة خيال، وإنما قد أُخذ من الحياة الحقيقية التي يعيشها المسلمون في بلغاريا، فهي موجَّهة لكي توقظ الضمير الإنساني في العالم بمأساة مسلمي بلغاريا، وبحقهم الملموس في اتخاذ الأسماء الإسلامية التي يَرونها، وكذلك من حقهم الطبيعي في الحياة الطبيعية.

إن المسرحية تقول للعالم أن يتوقَّف لينـظر كيف تقوم الحكـومات البلغارية المختلفة بمحو الشخصيـة الإسلاميـة، وكيف يقاوم المسلمـون هناك على ضعف إمكاناتهم سياسة إجبـار المسلمين عـلى ترك الإسـلام والاندماج في المجتمع البلغاري الشيوعي النصراني.

• • •

وهي مسرحية أَلَّفها مؤلِّفهـا «من أجل يقـظة الأمة الإسـلامية»، ومن أجل أن يقوم المسلمون باتِّخاذ المسرح وسيلة للتعبير عن قضاياهم؛ وهي قضايا إنسانية حيوية، لو كانت في أمة أخرى لقام العالم من أجلها.

---

(١) علي الكتاني: ص ١٣٤.

ومن ضمن ما تضمَّنه موضوع هذه المسرحية «شرح المظالم الواقعة على المسلمين الأتراك في بلغاريا، وتصوير اعتداءات الجنود البلغاريين على الفتيات التركيات المسلمات، واعتداء البلغار بوحشية منقطعة النظير على النسوة المسلمات المؤمنات»[1].

وأُحب أن أُقدِّم جزء من خُطبة ألقاها شفيق طورسون، رئيس اتحاد الطلاب الأتراك، في حفل أقيم احتفاءً ببدء عرض هذه المسرحية التي بين أيدينا، لتلقي أضواء على فكرة المؤلف والجو الإسلامي الذي عاشه أثناء تأليفه المسرحية:

«إن القوى المعادية للإسلام منذ عصور خلت، وهي قوى الصهيونية العالمية وقوى النصرانية العالمية، تعمل في تَساند غريب من أجل تحطيم أُمتنا الإسلامية. وقد نصبوا لأمتنا المسلمة الفخاخ حتى حطَّموا دولتنا العثمانية ثم حصرونا ــ نحن الأتراك ــ في جانب ضيِّق من عالمنا الإسلامي الرحيب، وهذا الجزء الضيق هو الأناضول».

وما زالت هذه القوى تعمل حتى الآن من أجل ما يسمّونه المسألة الشرقية، ويقصدون بها خلع الأتراك من الأناضول (تركيا الحالية) ونفيهم إلى صحاري آسيا الوسطى، بحجة أن آسيا الوسطى هي الموطن الأصلي للعثمانيين... وفي هذا تحدَّث بصراحة رئيس وزراء بريطانيا جلاد ستون بقوله:

---

(١) رمزي أوزچليك: بَكْلَه يَنْلَر، الطبعة الثانية، إستانبول، ١٩٧٦م، ص ٩٦، عن مجلة پينار، ١٩٦٩م.

«إن العثمانيين هم النماذج غير الإنسانية للإنسانية، وطالما أننا لم نَنْفِهِم إلى آسيا الوسطى، فلن يمكننا التحدُّث عن بقاء حضارتنا الغربية، واستمرارها».

«إن الصهيونية العالمية تستخدم تحت إمرتها كلاً من أمريكا وروسيا، وهاتان الدولتان تعملان معاً من أجل إقامة دكتاتورية الجنس اليهودي على العالم؛ والمثال على هذا من ضمن أمثلة كثيرة جداً، هو: مأساة المسلمين الأخيرة في قبرص (كانت هذه الخطبة عام ١٩٧٠م) أسلحة من تشيكوسلوفاكيا الشيوعية مأخوذة من هناك بواسطة روسيا، وقُدِّمت إلى عبد الناصر في مصر ومن هناك ـ أي من مصر ـ نُقلت بسفن أمريكية إلى ميناء «ماغوسا» في قبرص وسُلِّمت إلى المطران مكاريوس».

«وهناك خمس جمهوريات تركية تئنُّ تحت وطأة ظلم روسيا وظلم الصين الشيوعيتين، وليس لهذه الجمهوريات التركية، أي صوت مسموع في الأمم المتحدة. وفي مقابل هذا، تصبح بالضرورة الدول المرتبطة بحلف وارسو هي صاحبة الحق في الكلام في الأمم المتحدة»[١].

• • •

(١) نفس المرجع السابق في نفس الصفحة، ومحمد باشاران، بكله ينلر، ص ٩٣.

هذه المسرحيّة

(أ) مصــدرها:

هي مستقاة من حياة المسلمين الأتراك الذين يعيشون في بلغاريا، وتبرز عن طريق أحداث تقع في محيط مـأساة عـائلية، محـاولات هؤلاء المسلمين في الحفاظ على هويتهم وعلى كيانهم وثقافتهم، وقبل كـل هذا عـلى دينهم، في بلغاريـا التي سقطت في حضن الشيـوعية بعـد الحرب العالمية الثانية. وتتردد أحداث المسرحية بين فكـرة الوطن وحبّ المسلم لأمته، وبين الحب البشري، كـرمز لنهضـة الروح في الأمـة. وأراد بها المؤلف أن ينقل شعور المسلمين في بلغاريا إلى الخارج ليحدث ارتباط بين الخارج وبينهم، كما أراد أن يؤكد تشكيل مقاومتهم وفعاليتهم.

(ب) موضـوعها:

يقـوم بعض شبان بلغـار بمضايقـة «تُركـان»، وينبري واحـد من هؤلاء، وهو «هليمكوف»، بالتدخل لإنقاذ الفتاة وإبعاد هؤلاء الشبـان عنها، ثم يُعرِّف نفسه لها، ليس عـلى أنه بلغـاري وإنما عـلى أنه مسلم تركي، اسمه «خاقان». يحبُّ أحدهما الآخرَ، ورغـم أنه مـا زال طالبـاً يدرس، إلاَّ أن رغبته في الزواج من «تُركان» جعلته يُلِحُّ على أمه وعـلى العقيد بونياتفسكي ــ الذي يعرفه على أنه أبوه ــ أن يذهبا لخطبة الفتاة.

كذب هذا الشاب على حبيبته، وأزعجه هذا الكذب، بل عذَّبه. وكان يرى خيال حبيبته تُركان في الغرفة التي كانت مخصَّصة له في بيته، وكان هذا الخيال غاضباً منه، يقول له: لماذا خدعها وادَّعى أنه مسلم؟ ويقول الخيال الذي هو خيال تُركان: إنها لن تتزوَّج أبداً ببلغاري ليس مسلماً. ثم يختفي هذا الخيال، فيدخل في نفس الوقت أخوه الأصغر شامتروف من نفس الباب الذي خرج منه الخيال. وفي هذا اللقاء بين هليمكوف وشامتروف، تبرز كل الجوانب لدى الأخوين. الأخ الكبير وهو مثالي، والصغير وهو الواقعي الذي يرضى بالواقع على ما فيه من مسائل. ويُعتبر هذا المشهد، أكثر مشاهد المسرحية نجاحاً.

• • •

وأثناء زيارة الخِطبة، يقوم والد الفتاة المسلمة تُركان، بطرد العقيد البلغاري، وزوجته صوفيا. ويتصوَّر الوالد أن هذه الزيارة إنما هي جرأة ووقاحة، ذلك لأن العقيد ليس مسلماً، ولا يشفع له مركزه الاجتماعي والأدبي. يُسَرُّ العقيد، رغم الإهانة التي وُجِّهت إليه وإلى زوجته، سروراً بالغاً، وينقل هذا الفشل بتلذُّذ كبير إلى هليمكوف.

• • •

يلتقي الحبيبان في المكان الذي تعوَّدا أن يلتقيا فيه. هليمكوف يرجو ويتوسَّل أن يتم الزواج، وأن تنسى تُركان أنه كذب عليها. فتقول له أنها تبحث عن خاقان، المسلم الذي أحبته، وأنها لا يمكن أن تحب عدوّ دينها وشعبها.

• • •

يلتقي هليمكوف بأحد الأتراك المسلمين في بلغاريا، ويدعى أمين علي، وهو ساعاتي. وينزعج العقيد من لقاءات هليمكوف بهذا التركي المسلم. ويعبِّر العقيد البلغاري لصوفيا أنها وأمين علي قد أيقظا الولدين من شيء أراد العقيد أن يُنَشِّىء الولدين عليه. لذلك يرتدي العقيد ملابسه العسكرية الرسمية، ويخرج ليتشاجر مع أمين علي، ثم يعود. ويصبح العقيد البلغاري والساعاتي المسلم عدوّين على طرفَي نقيض.

• • •

لم يستطع العقيد البلغاري في يومٍ ما ـ أيام كان في السلطة ـ أن ينفي إلى سجون سيبيريا، إبراهيم زوج صوفيا والدة الطفلين هليمكوف (حليم)، وشامتروف (شامل).

لم يكن هليمكوف يدري عن واقعه شيئاً، ويحاول أن يثأر لاعتداء أمين علي على العقيد البلغاري، فيحاول أن يقتله ظناً من هليمكوف أن هذا العقيد والده، ورغم تضييق هليمكوف على أمين علي، إلَّا أنَّ الأخير لم يصرِّح بالحقيقة مرة واحدة.

يستفيد أمين علي من رابطة المحبة التي تربطه بهليمكوف، ليوجِّه إليه أسئلة منظَّمة تجعله يفكِّر التفكير الصحيح. وبهذا يوضِّح أمين علي لهليمكوف أنه مُسلم وأن اسمه الحقيقي حليم، وأن العقيد البلغاري قد خطف أمه صوفيا، وهي مسلمة وكان اسمها الأصلي صفيَّة، وتزوَّجها قهراً، وربَّى حليم وشامل (شامتروف) على أنهما بلغاريان. وأنهما ضمن الجيل المسلم التركي الذي تُريد السلطات البلغارية أن تُنشِّئهم على

فقدان هويتهم الإسلامية وتبلغرهم وتجعل منهم أعداءً للمسلمين، فيتّجه بعد ذلك هليمكوف إلى العقيد البلغاري، ويقتله. وكان هذا العقيد قد جاء من قبل بجنوده ليقتلوا أمين علي. ويقبض على تركان ووالدتها ووالدها.

• • •

يأتي كل من شامتروف وصوفيا، وهما خاليا الذهن من كل ما يحدث، فيقتلهما العقيد، وهو يمتلىء بالحقد والكراهية، ثم يدخل (حليم) فيخنق العقيد البلغاري ويقتله. تأتي تُركان، وكانت قد هربت من الجندي البلغاري الذي قبض عليها وحاول هتك عرضها، تأتي وهي ترتدي ملابس الجنود وتنضم إلى حليم. وكانت صوفيا تغطي نفسها، بعد إصابتها بإصابة قاتلة، بعَلم يحمل الهلال والنجم. ويقول شامل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، إن هذا البلغاري لا يمكن أن يكون والده[1].

• • •

---

(١) انظر: تعليق الكاتب والأديب التركي مصطفى مياس أوغلو، على هذه المسرحية.
نفس المرجع السابق، ص ١٠٩ ــ ١١٠ من مجلة بيلكي، عدد فبراير، ١٩٧٠م.

(ج) **مؤلف المسرحية:**

مؤلِّف المسرحية هو رمزي أوزچليك. وُلد عام ١٩٥٠م في قرية مينوز، إحدى قرى ولاية سامسون في تركيا. وكانت دراسته علمية (الفيزياء والكيمياء) وتربوية. بدأ اهتمامه بالفن والأدب منذ أن كان طالباً بالمدرسة الإعدادية، وبدأ هذا الاهتمام بكتابة القصة القصيرة والنقد.

• • •

ومسرحيته في أصلها التركي تحمل عنوان «المنتظرون»، وترجمناها إلى العربية بعنوان **«أيها الشهداء.. إنَّا قادمون»**. وقد لاقت هذه المسرحية، رواجاً كبيراً عندما مُثِّلت في تركيا، على ما فيها من بعض هناتٍ تَقْنِيَّة.

(د) **نجاحها على المسرح:**

مُثِّلت هذه المسرحية أوَّل مرة في ١٩٦٩/٨/١١م في شرفه لي حصار. ثم مُثِّلت بعد ذلك في آقسراى نيكده في ١٩٦٩/٨/١٣م، ثم في مدرسة المعلِّمين العليا في إستانبول من ١٧ إلى ٢٠ يناير سنة ١٩٧٠م، ثم في مدرسة إعداد معلمي المدارس الابتدائية في ١٩٧٠/٢/٢٤م، ثم مُثِّلت في لوله بوزغار، في ١٩٧٠/١/٢٥م في عرض خاص بجنود وضباط الجيش التركي.

• • •

ومع ذلك فلم يُتَح للمؤلِّف نشر هذه المسرحية في كتاب إلَّا في عام

١٩٧١م، ثم في عام ١٩٧٦م (الطبعة الثانية)، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في ترجمة هذه المسرحية.

• • •

ومما هو جدير بالذكر، أن هذه المسرحية تدور أحداثها سنة ١٩٦٤م، في قصبتي يان بولو وبور غاز، وهما قريبتان من مدينة صوفيا، عاصمة بلغاريا[1].

(هـ) **شخصيات المسرحية الرئيسية:**

١ ـ **إبراهيم:** مسلم تركي، حاول الحفاظ على دينه وتراثه، فقبض عليه الشيوعيون البلغار الذين كانوا يتعاونون وقتها مع القوات الروسية الشيوعية، ونفوه إلى معسكرات العمل في سيبيريا.

٢ ـ **صوفيا:** واسمها الإسلامي قبل إجبارها على تغيير اسمها: صفيَّة، وهي زوجة إبراهيم، تسلَّط عليها الشيوعيون بعد نفي زوجها، تسلَّطوا عليها جبراً وقهراً عن طريق ضابط بلغاري كي يتزوَّجها. فعاشت معه السنوات الطوال مقهورة مجبرة لكي تحافظ على سلامة ابنها الوحيد الصغير، لكنها رفضت في إباء وشمم أن تكون أداة لبلغرة ابنها وابن عمه الصغير (هليمكوف وشامتروف = حليم وشامل).

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢٢، عن بيزيم أناضولو، عدد ١٦ فبراير، ١٩٧٠م.

٣ ـ **هليمكوف**: ابن صوفيا وإبراهيم، واسمه الحقيقي حليم، ولكن مع سياسة البلغاريين في مسح الشخصية الإسلامية، أطلقوا عليه اسم هليمكوف، وهو اسم نصراني شيوعي بلغاري. عاش وهو يتصوَّر أنه بلغاري نصراني، وربّاه العقيد البلغاري بونياتفسكي، على أنه أبوه وهو ابنه، وأيضاً على كراهية المسلمين وعلى حبّ البلغاريين، وكذلك أدّى نظام التعليم البلغاري ودروس التاريخ فيه إلى كراهية الإسلام والمسلمين، ولم يفطن إلى الحقيقة إلاَّ بعد أن أحب فتاة تركية اسمها تُركان، وأراد أن يتزوَّج بها.

٤ ـ **شامتروف**: ابن عم حليم. ونشأ في بيت العقيد البلغاري بونياتفسكي. رُبِّي على أنه ابنه، وأن هليمكوف أخوه الأكبر، ولم يعرف أنه مسلم وأن اسمه شامل إلاَّ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

٥ ـ **تُركان**: مسلمة تركية، أحبَّها هليمكوف، وتصوَّرت أنه مسلم مثلها، ولم تقبل التزوُّج ببلغاري، على اعتبار أن البلغار أعداء أمتها. أعطت صوت الأذان في المسرحية صفةَ الأمن والأمان والعدالة، وصوَّرت صوت أجراس الكنيسة على أنه الاشمئزاز وكُره الإنسانية ومسخ الشخصية المسلمة، لأن البلغار ـ في تصوُّرها ـ نصارى، يجبرون المسلمين الأتراك على تغيير دينهم وأسمائهم الإسلامية، ويمنعون المسلمين من دفن موتاهم في مقابر المسلمين، ويحرمون المسلمين في بلغاريا من حقوقهم الإنسانية الطبيعية.

٦ ـ **أمين علي**: مجاهد مسلم تركي، وضع نصب عينيه هدفاً واضحاً، هو العمل على أن يحافظ أبناء جلدته من المسلمين الأتراك على دينهم وهويتهم، رغم الظلم البلغاري. وكذلك فعل مع صفية، زوجة إبراهيم. ومع ابنها هليمكوف = حليم، ومع ابن عمه شامتروف = شامل. صوَّرته المسرحية على أنه كان يعمل في سبيل هدف حفاظ شعبه على هويته، والقرآن في يده، والوطن على لسانه. ويصبح في أفق تحرُّر المسلمين من الضغط البلغاري.

٧ ـ **بونياتفسكي**: ضابط بلغاري سابق، برتبة عقيد. اشتهر بعملياته العسكرية للقضاء على الهوية التركية المسلمة في بلغاريا في أعوام الحرب العالمية الثانية. وعمل كل ما في وسعه بعد الحرب، على بلغرة المسلمين هناك. كان مُسلَّطاً على النساء التركيات، يؤيِّد إجبار البنات المسلمات على التزوُّج بالشباب البلغاري النصراني. كما كان يرى ضرورة بلغرة الفتيان الأتراك المسلمين، الذين يدرسون في المدارس.

٨ ـ **إيڤانوف**: بلغاري، مدرِّس تاريخ، ينزعج من الشخصية التركية المسلمة، يرى ضرورة بلغرة المسلمين وإلغاء هويتهم عن طريق التزاوج، ومحو شخصية الأتراك. يكره الطلاب ويؤذيهم وينكر دور العثمانيين في التاريخ.

• • •

وقد ترجمتُ هذه المسرحية، من اللغة التركية إلى اللغة العربية، وقدَّمتُ لها، وأهدف من هذا إلى:

١ ـ إضافة مسرحية تركية مفيدة إلى المكتبة العربية.

٢ ـ الأمل في تحرك الضمير العربي، وهو ضمير يتراخى غالباً في مناصرة قضايا الأقليات الإسلامية.

٣ ـ مدّ المسرح الإسلامي في اللغة العربية بموضوع مسرحي جديد.

وأرجو الله أن يتقبَّل مني، وهو الموفِّق الكريم.

الدكتور محمد حرب

مسرحيّة

أيُّها الشهداء .. إنّا قادمُون

الترجمة العربية الكاملة

● أيها الشهداء . . إنَّـا قادمون :

ـ مسرحية في ثلاثة فصول .

ـ تحوي سبعة مشاهد .

ـ قال عنها كاتبها :

«كتبتُ هذه المسرحية وأنـا أفكر في قلة حيلتي وعجـزي ، وفي قليلي الحيلة والعاجزين مثلي، (ممَّن ينتظرون يوم الخلاص) .

ـ صدرت في إستانبول عام ١٩٧١م .

***

شَخصيَّات المسْرحيَّة

بونياتفسكي : عقيد متقاعد في الجيش البلغاري .

صوفيا : سيدة مسلمة تركية خطفها بونياتفسكي .

هليمكوف : مسلم تركي مخطوف ربّاه خاطفه على أنه نصراني بلغاري .

شامتروف : مسلم تركي مخطوف ربّاه خاطفه على أنه نصراني بلغاري .

تُركان : فتاة مسلمة تركية من الأقلية المسلمة في بلغاريا .

إيڤانوف : مدرِّس التاريخ البلغاري متعصِّب لجنسه ودينه .

أمين علي : ساعاتي. مسلم تركي من الأقلية المسلمة في بلغاريا .

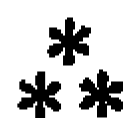
مصطفى } والدا تُركان .
جميلة }

يعقوب : فدائي مسلم تركي .

مجموعة من الجنود البلغار .

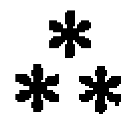
• • •

تدور أحداث هذه المسرحية في المنطقة المسلمـة في بلغاريـا، بعد مرور سبعة عشر عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية.



الفصل الأوّل

(الديكور محدَّد بوضع المتفرِّجين، ستارة رئيسية وعلى بعد خطوة منها ستارة ثانية لاجوردية اللون داكنة، ثم ستارة ثالثة على بعد مترين من الستارة الثانية، ولونها هو نفس لون الستارة الثانية. الستارتان مقسومتان من الوسط إلى نصفين. وهما ذواتا كرانيش، ويمكن فتحهما إلى اليمين وإلى الشمال. لوحة الجدار تمثِّل غرفة من نوع متحرك، مقسومة من الخلف إلى اثنين ويمكن طَوْيها كما يمكن حملها أيضاً. الستارة الثانية تُستخدم كسقف للغرفة التي في المشهد الأول. وهناك لوحة تمثِّل شاطىء بحر في الحائط الذي في الواجهة. شجرتان صناعيتان وُضعتا أمام اللوحة. بجوارهما حشائش خضراء، وحصى).



المشهد الأول

(غرفة الجلوس في منزل بونياتفسكي. في الأمام نافذة كبيرة شيئاً ما. على اليسار باب مفتوح على شرفة المنزل. أما على اليمين، فباب آخر مفتوح على المطبخ وعلى باقي حجرات البيت. وبجوار الباب الأيمن: منضدة وعليها مذياع وكراسي فوتيه كبيرة، ثلاثية القوائم. هناك لوحات على الجدار، متفرقة).

(عند فتح الستار نجد بونياتفسكي في النافذة، وصوفيا تجلس على كرسي).

***

بونياتفسكي : (يلتفت إلى الخلف)، إن الجو حار اليوم.

صوفيا : نعم، وأكثر من المعتاد. والولدان لم يَعُودَا ـ حتى الآن ـ من المدرسة.

بونياتفسكي : (نحيف القوام، عصبي، طويل القامة، حاسر الرأس، يرتدي الملابس العادية اليومية. يقول وهو جالس): دعكِ الآن من الوَلَدَيْن. هل الأكل جاهز؟

صوفيا : ألا تفكر في شيء غير الأكل؟ ماذا يدعوك إلى العجلة، والشمس لم تغرُب إلَّا منذ قليل.

بونياتفسكي : على فكرة! هل وضعتِ لحم الخنزير في الفاصوليا.

صوفيا : (بحدَّة) لا، لم أفعل، لأني سئمت من لحم خنزيرك هذا. كما أني لا أنوي البقاء جائعة بحجة أنك تحبُّه.

بونياتفسكي : (وهو يتربَّع على الكرسي، وبحدَّة)، ألم أحثّك على فعل ذلك؟!

صوفيا : نعم، لكني لم أفعل وكفى! (تنهض واقفة. ترتدي ملابس طويلة، رأسها حاسر، تتَّجه إلى النافذة)، تُرى لماذا تأخرا؟

بونياتفسكي : وما أدراني؟

صوفيا : (تشير إلى الطريق)، ها هما قد وصلا. (يبدو الضيق على وجه هليمكوف).

بونياتفسكي : لا أدري. اسألي ولدك. إن تقطيب الجبين قد أصبح سمته الظاهرة في الأيام الأخيرة هذه. ويبدو في ذلك كبائعي الطُرشي المتجوِّلين.

(هليمكوف وشامتروف يدخلان من الباب الشمالي. يبدو الغضب على وجه هليمكوف. يجلس على مقعد. أما شامتروف: فيبدو عليه السرور بشكل واضح، يُحييان بونياتفسكي وصوفيا).

شـامتروف : أهلاً يا أمي، أهلاً يا أبـي. أراكما تنتظران ضوء القمر. فـاتكـما من مـدة انتـظاره والتمتّـع بـه. (يلتفت إلى هليمكـوف) أليس كذلـك يا أخي الكبـير؟ الدور بعـد ذلك علينا. (بابتسامة خفيفة، ثم ينظر إلى وجوه من في الغرفة، فَرْداً فَرْداً).

بونياتفسكي : (غـاضباً، يسـير نحـو المقعـد الـذي يجلس هليمكـوف عليه). أي ضوء قمر هذا الذي تتحدثان عنه؟ إننا كنا ننتظركما، أراكما تتأخران هذه الأيام كثيراً.

شـامتروف : (ناظراً إلى هليمكوف) نحن، نعم، ماذا، إنـه كذلـك بالفعل.

بونياتفسكي : (محتداً)، واضح أنكما تلاحظان هذا. أليس كذلك؟

صـوفـيـا : (وهـي تـوجّـه كـلامهـا مـن حيـث تجـلس، إلى بـونياتفسكي)، إيّـاك وفتح فمـك بالـثرثـرة من الآن. استـرح حيث أنت، ودع الـولـدين ليستـريحـا، أولاً. (تلتفت إلى هليمكوف) هل أنت مريض يا ولدي؟

هليـمكوف : نعم نعم. يجب أن نستريح فلقـد سرنا طـويلاً. نعم، ولم يكن ما سرناه قليـلاً أبداً، كـان من الـضـروري أن نتعب طبعاً.

شـامتروف : نعم. نعم. تعبنا.

صـوفـيـا : حسناً يا ولدي. المهم ألاّ تكون مريضاً.

بونياتفسكي : (يجلس على مقعد يشعل سيجارته)، هيا حدِّثاني، ماذا قال لكما مدرِّس التاريخ اليوم؛ السيد إيڤانوف؟! هيا حدِّثاني.

هليمكوف : (يتَّجه إلى وسط الغرفة)، شرح لنا تاريخ جمعية الشبان الأتراك في بلغاريا.

صوفيا : جمعية الشبان الأتراك المسلمين؟

هليمكوف : نعم يا أمي.

بونياتفسكي : دعك من أمك يا بني. هيا حدِّثنا عمّا قاله. (يزداد سروره) إني ــ والحق يقال ــ أحب إيڤانوف.

شامتروف : أما أنا فلم أستمع إليه.

بونياتفسكي : ولماذا؟

شامتروف : لأنه يتحدَّث عن نفس الأشياء دائماً. يكرر دائماً ما يقوله.

هليمكوف : ما أعظمهم من أُمَّة يا أبي؟ بذل أجدادنا البلغار جهداً عظيماً وبأساً كبيراً ضد هؤلاء المسلمين الأتراك. ومع ذلك، فلم يستطيعوا إخماد حماسهم ولا قتل مشاعرهم. إن هؤلاء المسلمين الأتراك قوم يعاندون، يعني فيهم عناد، والعناد يزيد الإحساس بالذات. أرانا إيڤانوف بعض صور تمثِّل ذلك العهد العثماني، ثم ماذا قال لنا،

أتعرف؟ . . قال لنا: «سنقوم نحن بعملٍ ما، لم يستطع أجدادنا البلغار عمله. والواقع أن إيڤانوف يكرر نفس الكلام في كل فصل يدخله، حتى لو كان في هذا الفصل طلبة من المسلمين الأتراك، أحياناً يعترض عليه أحد هؤلاء الطلبة، فيرسِّبه في الاختبار ويعطيه صفراً، ولا يكتفي بهذا بل يثير الإدارة على هذا الطالب، فتوقع الإدارة عليه العقاب بالضرب. أما إيڤانوف فلا يضرب الطالب، ذلك لأنه جبان. سعلت ذات يوم ــ على حين فجأة ــ في الفصل أثناء إلقائه درسه، فإذا به ــ يعني إيڤانوف ــ يثب في هلع، وكأن قنبلة قد انفجرت.
(تضحك صوفيا وهي تنظر إلى بونياتفسكي)، ثم ينظر إيڤانوف يمنة ويسرة.

شامتروف : (قاطعاً كلام أخيه)، آه يا أولاد! من فعل هذا (وهو يقلِّد إيڤانوف)، كدت أموت من الخوف.

هليمكوف : (قاطعاً كلامه)، إن هذا الكلام، كلامه الطبيعي. بعد ذلك نظر إليَّ شزراً واتجه إلى مقعده ليجلس عليه.

صوفيا : (وهي تتحدَّث إلى بونياتفسكي) الحقيقة أن في هؤلاء المسلمين شجاعة، من يسمع بهم يجري ليبحث عن ملاذ يحتمي به. أليس كذلك يا بونياتفسكي؟

بونياتفسكي : (غاضباً) اسكتي أنت يا امرأة. كوني في حالك، ما لي أنا ولشجاعتهم هذه؟

شـامتروف : ما هذه الشجاعة التي تتحدَّثين عنها يا أمي. إنهم قـوم متوحِّشون. أقليل هذا الذي نالنـا من ظلمهم؟! أقليل ما قاموا به من إيذائنا؟!

بونياتفسكي : (جالساً وهو ساكن) صحيـح كلامـك. إيڤانـوف أيضاً يقول هذا الكلام كثيراً. أليس كذلك؟

شـامتروف : نعم.

بونياتفسكي : شكراً لإيڤانوف. إنه مدرِّس رائع.. مدرِّس مثالي. إني أودُّ التعرف به. أحضراه لي في أول فرصة تسنح لكما.

شـامتروف : يا والدي!.. كنت وعدتنا بالتحدث عن ذكرياتك، ألا يمكن هذا، اليوم.

بونياتفسكي : لكن الجوع قد بلغ منّا مبلغاً.

شـامتروف : (مقترباً من بونياتفسكي)، حدِّثنا يا والدي عن ذكرياتك، أمـا الـطعام فلا بدَّ لنا بالضرورة أن نتناوله، وليكن هذا فيما بعد. هيا يا والدي العزيز يا والدي العظيم..

هليـمكوف : حدِّثنا وإنّـا لمستمعون، وبشرط أن يكـون حديثـك من هذا النوع الذي يؤثر في العين وفي القلب، ولا تتحدَّث مثل أمي عن الأشياء المخيفة دوماً. (ينظر بونيـاتفسكي إلى صوفيا غاضباً)، عندما يهجم الأتراك يصيحون بأعلى أصواتهم قائلين: الله أكبر! الله أكبر! فيحيلون المكان إلى غبار. (يبدو أثر الابتسام على وجه صوفيا). هـذا شيء

رهيب. (صوفيا تقطب جبينها)، أليس البلغار شجعاناً يا والدي؟ كنا نمتلك مختلف الأسلحة، من السلاح الأبيض إلى البندقية والمدفع. نعم، تُرى ماذا كان ينقصنا في تاريخنا معهم؟

بونياتفسكي : (غاضباً) وما أدراني أنا يا بني؟

هليمكوف : ولماذا لا تدري يا والدي؟

صوفيا : (متدخِّلة) لا يدري، لذلك لا يعرف.

بونياتفسكي : (غاضباً) اسكتي أنت يا امرأة. إنك ترهقين ذهني جداً، فاحذري.

شامتروف : (يتوسَّط المكان) دعكما من هذا الهراء. وليبدأ والدي حديثه. هيا يا والدي العزيز.

هليمكوف : (جالساً) إننا نستمع إليك يا والدي.

بونياتفسكي : (وهو يقف على قدميه)، سأقصُّ عليكما فاستمعا جيداً. (تنظر إليه صوفيا غاضبة) هذه أجمل ذكرى من والدي، جدّكما لوالدكما، كان جندياً على أعلى مستوى من الكفاءة، وما كان يقصُّه علينا كان بمثابة الأغنية التي كنت أنام عليها وأنا ما زلت في المهد.

شامتروف : (قاطعاً كلامه) وما تقصُّه أنت علينا يا والدنا إنما هو أغنيات طفولتنا.

بونياتفسكي : (باستمرار) ولقد بلغ بـي التعوُّد عليها مبلغاً كبيراً، حتى إن النـوم لم يكن يـداعب أجفـاني كـل مســاء إلاَّ بعـد استماعي لإحداها. (ملتفتاً إلى هليمكوف وشامـتروف) هذه الحكاية جديدة كل الجدة يا ولـديّ. كان أبـي من أبـرز الضبـاط في الجيش البلغـاري الـذي كـان ينـازل العثمانيين في حرب البلقان الأولى، كان جيشنا قد أنزل الهزيمة بالعثمانيين حتى تراجعوا إلى أدرنه. وهناك أضرم البلغار النار في كل شيء وعبث جنودنا بالنسـوة الأتراك وعن هذا حدِّث ولا حرج. (يتابـع كل من هليمكـوف وشـامتروف حـديث بونيـاتفسكي بكـل اهتـمام)، ومن كانت تقاوم كان مصيرها القتل وكان هذا أمراً طبيعياً. (تخرج صوفيا في هذه الأثناء من الباب الأيسر. الآخرون مستغرقون في التفكير).

هليمكوف وشامتروف: (يقفان كما لو كانا يقفزان) طبعاً يعملها جدنـا الرائع!

بونياتفسكي : (مستمراً) وهل كان أحد يستطيع الاعتراض؟ هل كانت النسوة المسلمات يستطعن المواجهة؟ (مشيراً بيده إلى بطنه كأنه يضخمها) ثم تظهـر النسوة بعـد ذلك حـاملات، بالطبع كنَّ في البداية يقاومن، لكن السونكي كان دوماً مشهـوراً أمامهن، إمـا هذا وإمـا الموت، فكن يخضعن يا أولاد خوف الموت. يحكون أن لُعاب رجالنا كان يسيل

أمـام النسوة الأتـراك. (غاضبـاً) يا لهـا من جرأة! لقـد أخضع هؤلاء الأتراك كـل هذا العـالم لسطوتهم عنـدما كانت عاصمتهم في أدرنه[1]. (تدخـل صوفيـا، تجلس على مقعد) أعمل جنودنا سلاحهم الأبيض فيهم جميعاً. (يهز يده وكـأن بها سـونكي) وعندمـا كنت أسمع هـذا كنت أقفز في مكاني فرحاً وأنا أقول. . وأنا أيضاً سأصبح جندياً! إن وبالفعل أصبحت!

هليـمكوف : (يقفز إلى أعلى بسرور) وأنا أيضاً سأصبح جندياً.

شـامتروف : (في نفس اللحظة، وبنفس الحركة)وأنا أيضـاً سأصبـح جندياً.

بونياتفسكي : (بسرور) جميل منكما هذا. تغمرني السعـادة وأنا أراكـما هكذا. (ملتفتاً إلى صوفيا) أظن أننـا نستطيـع الآن أن نـأكل يـا امرأة! هيـا يـا أولاد! إلى الأكـل! . . (يخـرج هليمكـوف وشـامـتروف من الجهـة اليمنى. ينـظر بونياتفسكي إلى وجه صوفيا وهو يصرّ على أسنانه).

صـوفـيـا : (تتَّجه بحديثها نحو بونياتفسكي) يـا أسفاً عليـك وأي أسف! (يخرج بونياتفسكي).

هليـمكوف : (يدخل من الباب الأيمن) أمي! لماذا لا تأتين؟!

---

(١) أدرنه: مدينة في تركيـا الأوروبية، كـانت عاصمـة للدولة العثمانية قبل إستانبول.

صوفيا : كلوا أنتم، فلقد سبق أن تناولتُ شيئاً من الطعام. وأود أن أستريح، إني أعددت طعامكم كالعادة. بعد أن تأكلا اذهبا إلى حجرتكما واستذكرا دروسكما جيداً. هيا يا ابني، افعل ما قلته. (يخرج هليمكوف من نفس الباب. تتناول صوفيا جريدة من على المنضدة وتأخذ في قراءتها؛ ثم تفتح المذياع. ينبعث صوت موسيقى غير تركية من المذياع. تعود صوفيا وتجلس مكانها. تستريح قليلاً ثم تخرج بخطوات متثاقلة من الباب الأيمن).

شامتروف : (نافخاً بطنه) أخي الكبير! يبدو أنني أكلت من لحم الخنزير أكثر من اللازم. لكنه لذيذ. (يتجشأ) بالفعل كان لذيذاً.. لذيذاً.

هليمكوف : هنيئاً مريئاً يا شامتروف. أتعرف أن والدنا تحدَّث عن الحرب، وعن هذا وذاك، كلها أشياء حسنة، لكن ما أفكِّر فيه يا شامتروف مسائل أخرى جدّ مختلفة.

شامتروف : أفهم هذا جيداً. لكنا مع ذلك نقضي أوقاتاً ممتعة.

هليمكوف : (بسرور) آه، إنك لا تستطيع إدراك الأمر جيداً يا شامتروف. إن الفتاة تحبني حباً جماً. حتى اسمها كم يبدو رائعاً وجميلاً أيضاً، أليس كذلك؟ .. تُركان.. آه يا تُركان!

شامتروف : أخي الكبير! إني ألاحظ مدى سعادتك. إن هناك فتاة تحبك، كما أنها تركية مسلمة((بتهكم) يعني، أتدري أن السعادة التي تنتابك الآن، هي ـ كما تبدو لي ـ مثل لهيب التبن يحترق ثم ينطفىء. وتنتابك أحياناً ـ علاوة على هذا ـ نوبة من التفكير العميق، وأحياناً أخرى تحتدُّ أعصابك وتحترق. (ضاحكاً) على كل حال فأنت عاشق محبّ، محبّ!

هليمكوف : ولماذا تتهكَّم؟ لو كنت مكاني ماذا كنت تفعل؟ أنا بلغاري نصراني لكني أحب فتاة تركية مسلمة. ولم أسمع حتى الآن أن فتاة تركية مسلمة تزوَّجت ببلغاري نصراني، أسمعت أنت هذا؟

شامتروف : (في جدية ساخرة) حسناً، لو نلت هذا الشرف، سأكون أنا أيضاً سعيداً جدّاً، ذلك لأني أنا أيضاً لم أسمع بمثل هذا.

هليمكوف : عليك الآن ترك أسلوبك الساخر هذا، وأغلق هذا المذياع.

شامتروف : (وهو يغلق المذياع) وأي سخرية في هذا يا أخي الكبير؟

هليمكوف : (مبتسماً) وماذا سأعمل غداً؟ هل تعرف؟

شامتروف : وماذا ستعمل؟

هليمكوف : سألتقي بتُركان، حذار أن تحدّث أبي بشيء من هذا!

شـامتروف : ومالي أنا ولهذا، أنا ذاهب لأنام. نومـاً سعيداً وأحـلاماً وردية يا أخي الكبـير. (يخـرج شـامـتروف من البـاب الأيمن، يجلس هليمكـوف ساكنـاً في مقعده، ثم يـركِّز عينيه على نقطة في الأرض. الموسيقى خفيفة. يعتدل. يسير نحو النافذة. يتفرَّج قليلاً على الخارج).

هليـمكوف : (يلتفت إلى الخلف) أفكـر أحيانـاً، وأقـول لنفسي لمـاذا أحب هذه الفتاة؟ ولماذا هي تحبني؟ عندما أفكر فيما يقوله «أمـين علي» ينقلب تفكـيري رأساً عـلى عقب. تعرَّفت صدفة على «أمين علي». . . كان والدي قد انتهى ذات مساء من سرد ذكرياته القديمة ــ مثلما فعل هذا المساء ــ فـامتلأت غيـظاً. وعنـدمـا ذهبت في اليـوم التـالي إلى المـدرسة أخـذت أبحث عن ولد تـركي لأضربه. وقـد تشاجرت بالفعل مع أحدهم بـلا أي سبب، ولم نتركـه ــ أنا وأقراني ــ إلاَّ عندما دُقَّ الجـرس. في هذه الأثنـاء سقطت ساعتي على الأرض وعُطبت. ذهبت بها ــ بعد المدرسة ــ إلى دكان ساعـاتي. تحدَّث الـرجل الـذي في الدكان معي باللغة التركية ظناً منه أنني تركي، فغضبت كثيراً. قلت له أن يصلح ساعتي سريعاً. ردَّ عليَّ قائلاً: «لن أفعـل». فتصـادمت معـه. قـال لي هـذا الـرجـل الـطيب: «يا ولـدي! اذهب أنت وأرسـل لي والـدك، فأصابني الضيق من هـذا كثيراً. ذلـك لأن كلمته هـذه

كـان وقعها صعبـاً عـليّ. لكني أعجبت كثيراً بمـروءتـه ورجولته. عدتُ إليه في اليوم التالي واعتذرت له. ومنذ ذلك اليوم تصادقنا: أنا وأمين علي. كان يحدِّثني بعدها كثيراً عن المسلمين وعن أحوالهم، ولم أستطع التخلُّص من تأثيره عليَّ إلى اليوم. (يجلس. موسيقى لمدة لحـظة) قبل سنوات جاءت امرأة مسكينة وحيدة من بعيد، من أقصى الدنيا، من الصين. نزلت على الأتراك المسلمـين في منـطقة «قـراداغ»، كان اسم هـذه السيـدة تُـركـان خاتون. وحكايتها أن الصينيين قد مزَّقوا زوجها إرباً إرباً على الحدود. هاجرت هذه السيدة بمفردها، ثم جـاءها المخاض وهي في منطقـة قراداغ، فـولدت في سفحـه، لكن الصقـور خـطفتــه منهـا لتختفي وسط السحب.

.. أفكر في تُركان التي أحبها، وأشبِّهها بتُركان خاتـون هذه وأفكر في ابنها الذي خطفته الصقور ومزَّقته، وكأني أنا هو، وساعة أن أفكر في هذا أذوب في حـرارة الغيرة وأنتهي. (ينهار على المقعد. الموسيقى سريعـة الحركـة، وبينـما يـرفـع رأسـه ببطء). ثم مــاذا يقـول في هـــذا «أمـين علي»، أتـدري؟ يقول: يـا بني! إن تُركـان هذه وتُركان تلك والآدمي الممزَّق، كل هؤلاء يمثِّلون أرواحاً ونفوساً تعيش بينـنـا، إنهم سينبثقون من كـل مكان وفي كل لحظة طالما أن جياد الأجداد قد وطأت هذه الأماكن،

وسيعلم الغافلون الذين يواجهونهم كل هذا، ولكن متى سيعلمون؟ متى سبق السيف العزل. (بابتسامة ساخرة). ولكن يستولي عليَّ أحياناً شعور بأن كلامه هذا فارغ. لكني لا أستطيع قول هذا. أفكِّر أحياناً وأقول لنفسي: إن أمين علي على حق منذ استماعي إلى هذا منه. ثم أحدِّث نفسي قائلاً: من أنا؟ ولماذا أحب تُركان المسلمة كل هذا الحب؟ قد يبدو هذا أمراً غريباً. لكني أخاف من تحليل مشاعري. (يجلس ويأخذ في التفكير. موسيقى مرعبة تشبه رعد السماء). وفي نفس الوقت تخفت الأضواء. ومن الأمام كشّاف ضوء يتعقَّب هليمكوف. هليمكوف في معاناة داخلية هائلة. تصمت الموسيقى).

صوت : استمع إليّ! . . أنا أيضاً منكم. سأعرفك بنفسك من داخلك. مقصدي أن أصِلَك بنور الحقيقة. (الصوت يأتي من الحلق وممتلىء) جعلوني أسبح في بحر الكذب منذ سنوات عديدة، وجاء الوقت الآن ليجف هذا البحر.

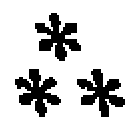
هليمكوف : (على حاله السابق) أي كذب؟ وهل أسبح أنا في بحر الكذب؟! ومن يدفعني للسباحة فيه؟ من ذا الذي يفعل ذلك؟ (يرجع إلى الخلف وهو ينهار في مقعده) كذابون. . كذابون. . من هؤلاء؟ أمي؟ أبي؟ مَن؟

. . (تُسحب الستارة للدلالة على أن الزمن قد مرَّ. واجهات متنقِّلة تسحب إلى اليمين وإلى الشمال. الكشاف الكهربائي الذي في الواجهة يضيء الستار. تُسحب لوحة المشهد الذي في الخلف إلى الوسط. إخلاء ما في داخل الغرفة. تعزف الموسيقى إشارة إلى تغيير لوحة المشهد في إطار الزمان الماضي).

• • •

المشهد الثاني

(المنظر يمثّل شاطىء بحر، في الحائط المواجه. أمامه شجرتان صناعيتان. أوراقهما خضراء. الطقس حارّ والفصل صيف. الأماكن مغطّاة بالحشائش الخضراء، الستائر المعرَّفة في الديكور متَّحدة بشكل مناسب وتضمن للمسرح كسباً فنياً. ينير المنظر ضوء أخضر من الجانب الشمالي. هناك كشاف يأتي ضوؤه من الواجهة فيضيء هليمكوف الذي يجلس تحت شجرة من الأشجار. أما الأشجار التي على الجانب الأيمن، فإنها تلتف من وراء هليمكوف وتلمس بحوافها أقدام تُركان. هليمكوف لا يلحظ وجودها. تُركان ترتدي ملابس طويلة. تقترب جيداً من هليمكوف. تبتسم.).



تُركان : خاقان..

هليمكوف : أجئتِ يا تُركان!

تُركان : هأنذا بجوارك.

هليمكوف : (يعتدل. يرتدي بنطلوناً رمادياً وفوقه صديري أبيض برقبة). خفت ألَّا تأتي يا تُركان.

تُركان : قابلتُ جارة لي في الطريق، فوقفت معها مضطرة، لأنها قالت لي إلى أين يا فتاة هكذا؟ قالتها وهي تضحك. أليس لها حق في قول هذا؟

هليمكوف : (بقلق) وماذا كان جوابك عليها؟

تُركان : لا شيء. وماذا يمكن أن أقول؟ أخبرتها أني ذاهبة إلى جدول الماء. ضحكت المرأة مرة أخرى وقالت: إني أراك يا فتاة تذهبين إلى هذا المكان كثيراً هذه الأيام. أليس لها حق في هذا يا خاقان؟ لكن ـ والحق يقال ـ إني لم أُعِر ما قالته اهتماماً وسرت في طريقي إليك.

هليمكوف : قبل قليل كانت هنا امرأة أيضاً، أطالت النظر إليَّ ثم ذهبت، ولعلها هي نفس المرأة.

تُركان : أكانت ممتلئة الجسم قليلاً؟

هليمكوف : نعم قليلاً.

تُركان : إنها نفس المرأة، ولا بدَّ أن تُخبر أبي.

هليمكوف : وماذا سيحدث؟

تُركان : يحدث أشياء كثيرة، يا خاقان. سيضايقني والدي. (تجلس على حجر في الخلف، مهمومة تفكر).

هليمكوف : (مقترباً من تُركان) يعني سيضايقك ما معنى هذا؟ ألا تحبّينني؟

تُركان : (تعبث بشعرها الطويل الأسود المجدول). ولماذا تسأل؟

هليمكوف : (كأنه مقتنع) إذن فإن مضايقته لن تفيد شيئاً. (مبتسماً) ثم لماذا بدأنا كلامنا بهذا يا تُركان؟ (يذهب ويجلس بجوارها).

تُركان : هل تذكر ذلك اليوم، أوّل يوم أتعرّف فيه عليك؟ هل تذكر كيف أسرعتَ يا خاقان لنجدتي؟ ولولا شهامتك لأصابني الضرّ. (بحقد) آهٍ من هؤلاء الشباب البلغار النصارى.. (غاضبة وهي تهز رأسها) ما زالت سحناتهم المقيتة ماثلة أمام وجهي حتى اليوم.

هليمكوف : (مفكراً مطرقاً برأسه إلى الأرض). ولماذا تفكرين فيهم بغضب هكذا يا تُركان؟

تُركان : (بحدَّة) وما معنى كلامك هذا أيضاً؟ لو كنت مكاني، ألم تكن تغضب؟ لو كنت مكاني ألم تكن تحقد عليهم وتحتقرهم؟

هليمكوف : (مفكراً) وما هذا الحقد والاحتقار يا تُركان؟

تُركان : لا تبدأ في إلقاء محاضرة عليَّ الآن يا خاقان، إني أحتقرهم جميعاً كلهم في غاية التوحّش.

هليمكوف : (وبنفس التفكير) ولماذا لا يكونون طيبين يا تُركان؟! لو لم أكن أنا بالذات موجوداً وقتها، ربما خرج واحد منهم ليقوم بنفس الواجب الذي قمتُ به أنا، ربما قام هذا الشخص ـ بعد استيقاظ ضميره ـ بإنقاذك من بين أيديهم، بل ربما كان قد أحبَّك أيضاً، وربما كان الحال قد وصل به إلى درجة الرغبة في الزواج بك، (بتفكير مهموم) ولو كان هذا قد حدث بالفعل يا تُركان، تُرى ماذا كان يمكن أن يكون رد فعلك؟!

تُركان : لا أستطيع التفكير في شيء مثل هذا يا خاقان، مستحيل، لا يمكن لشيءٍ مثل هذا أن يكون.

هليمكوف : ولماذا؟

تُركان : ليس في واحد منهم قط صفة من التي تذكرها، إنهم نسوا الماضي سريعاً (تُسمع في نفس اللحظة، ومن بعيد، أصوات أجراس كنيسة)، هل تسمع يا خاقان؟ (تنهض تُركان، تشير إلى البعيد، يجلس هليمكوف وعيناه على إشارات تُركان)، أتسمع يا خاقان! إنها أجراس. . (تنطق ببطء وكلمة كلمة) ولكن لا آذان. . إنهم. . أسكتوا. . صوت أذان مساجدنا. . ها هو ذا الاشمئزاز والنفور. . أصوات أجراس الكنائس نفور. . (هليمكوف يقفز من مكانه منتصب القامة بلا حراك. ما زالت تُركان تشير إلى البعيد).

هليمكوف : (وهو يتقدم نحو الأمام) أهذا هو النفور؟

تُركان : (تنزل يدها وتلتفت إليه) نعم . .

هليمكوف : (مقترباً من تُركان) حسناً يا تُركان، إذا كان هذا هو النفور فماذا يكون الحب إذن؟!

تُركان : الحب هو صمت أجراس الكنائس ليرتفع صوت أذان المساجد. الحب هو: نحن يا خاقان، نحن كلنا.

هليمكوف : (يبدو عليه الامتنان) يعني أن الحب هو نحن؟ (يهرع نحو تُركان، يمسكها بيدها). كلانا. . والأشجار والطيور والعُشب المخضرّ، جزء من حبِّنا يا تُركان. (تزداد في وضوح أصوات تغريد الطيور المستمر طوال المشهد. تُسمع بين الحين والحين أصوات طيور الوقواق. يجلس كل منهما في مواجهة الآخر. لحظة سكون).

تُركان : (تقطع السكون) يا خاقان!

هليمكوف : نعم يا تُركان.

تُركان : (على استحياء) هل أخذت رأي أمك فيَّ؟

هليمكوف : (بتردد ودهشة) نعم نعم، بالطبع. بالطبع يا تُركان. أمعقول ألاَّ أحدثها في هذا؟ (ببسمة مصطنعة) وستجدك جميلة جداً.

تُـــركـــــان : (بتفكير) أتدري ماذا أريد؟

هليـمكوف : لا أدري .

تُـــركـــــان : أن أعرفك.

هليـمكوف : وكيف؟

تُـــركـــــان : (تنهض، وهي تروح وتجيء بخطوات بطيئة). إذا علم والدي بأمرنا، سيسـأل عنك وعن أمـك وأبيك، وأنـا لا أعرف عنك أكثر من اسمك، وليس لـديَّ معلومات أخرى غيره.

هليـمكوف : ألا يكفيك هذا؟

تُـــركـــــان : أتتصوَّر أن مجرَّد معرفة اسمك يكفي؟

هليـمكوف : لا أدري، ربما تصوَّرت هذا.

تُـــركـــــان : آه، لو حدثت مراسم هذا التعارف بين أسرتي وأسرتك سريعاً وبالشكل الذي أريده.

هليـمكوف : (بـاستغراق في التفكـير) نعم، وليكن مثلما يـود كـلانـا يا حبيبتي.

تُـــركـــــان : حسناً، وماذا ستفعل إذا رفض أبوك وأمك؟

هليـمكوف : (بحيرة) وكيف يرفضان يا تُـركان؟ وأنـا أحدثهـما عنك دوماً. وسأتحـدَّث في هذا الأمـر أيضاً عنـدما أعـود إلى

البيت، لا أدري كيف سيكون انطباع أمي، ولكني (بهدوء) أفكر فيما سيقوله أبي.

تُركان : (نصف منصتة) لم أفهم. أتفكِّر في موقف والدك؟

هليمكوف : يعني أريد القول بأن أبي رجل شديد، ولكن ماذا سيضيرنا من شدَّته، نحن سنعيش معاً، وهو بدوره إنسان وسيحترم ـ على الأقل ـ حبَّنا. (مفكراً وكأنه يخبِّىء شيئاً ما) تُرى ماذا سيقول أبوك وأمك؟

تُركان : لا أدري. وإنما أعرف أن أقصى أمانيهما أن يسعداني. لذلك ـ وكما قلت لك منذ قليل ـ يريدان معرفتك جيداً. من عاداتنا نحن المسلمين الأتراك خاصة في إقليم قازان، أن يتعرَّف في مثل هذه الحالات، الطرفان جيداً ببعضهما البعض عند تزويج فتاة، ثم بعد هذا التعارف الجيد يتَّخذون القرار، أنت تقول إنكم جئتم من منطقة صوفيا. حسناً، ما هي العادة عندكم هناك في مسألة الزواج وكيف يتم؟

هليمكوف : (بخجل) نسيتُ عاداتنا وتقاليدنا.

تُركان : يا للغرابة! أينسى أحد تقاليده.

هليمكوف : أقول نسيت، ماذا في هذا يا عزيزتي؟

تُركان : التعارف! التعارف!. ومعرفة كل شيء.

هليمكوف : (مستغرقاً) التعرُّف بكل شيء (بحدَّة)، منذ فترة وأنت لا تنفكّين عن السؤال بأسئلة غريبة، ما سبب هذا؟ ما أعجب هذا التعارف الذي تتحدَّثين عنه؟! عندما يقوم الناس بأداء عملٍ ما. . ما الداعي لكي يتعرَّف بعضهم على بعض! ألا يكون هذا إلَّا بهذا؟! إن حرية الناس وحركتهم ستكون أفضل إذا لم يتعارفوا، يمكن أن ينفر الإنسان من شيء يحبه كثيراً إذا تعرَّف عليه جيداً من كل جوانبه.

تُركان : (مقاطعة كلامه) تُرى أعندما يعرف الإنسان جيداً شيئاً ينفر منه، ألا يغيِّر رأيه فيه، ومن ثم يكرهه؟

هليمكوف : ربما، لكني لا أحب التعرف على أحد ولا أحب أن يتعرف عليَّ أحد، فالتعرف لا يوضح قيمة الإنسان الحقيقية، وما دمنا نعرف بعضنا بعضاً جيداً، إذن فما الداعي للتعرف الدقيق؟ ألا يكفي لو عرف الإنسان اسم من يحبه بعد أن يتعرَّف إليه؟

تُركان : (وهي تتابع النظر إليه منذ فترة) وماذا يجدي الاسم يا خاقان؟

هليمكوف : ينفع أحياناً في أشياء كثيرة، وأحياناً لا ينفع في شيء.

تُركان : نعم، فالأسماء إذا لم تعبِّر عن القيمة التي تستحقها فلا معنى لها، هل لك اعتراض على هذا؟

هليمكوف : إنك تتحدَّثين بشكل خياليّ يا تُركان.

تُركان : ما هذا الذي تقوله؟

هليمكوف : (مبتسماً) لا تغضبي سريعاً هكذا يا عزيزتي، ألا تلاحظين شيئاً؟ جئنا هنا لنتحدَّث ونستغرق في الحديث عن المظاهر، أليس كذلك؟

تُركان : (مبتسمة) نعم! يا الجمال ما نتحدَّث فيه.. إنني لا أضيق ذرعاً قط بهذا، أما أنت فعلى العكس، أليس كذلك؟ (وهي تمسك كتفي هليمكوف). استمع إليَّ يا خاقان، أتعرف ما هو مبدؤنا؟

هليمكوف : (مندهشاً ومأخوذاً قليلاً) ما هو؟

تُركان : (كلمة كلمة وفي بطء) معاقبة الخائنين، معاقبة الخائنين.

هليمكوف : (يتقدم نحو الأمام) معاقبة الخائنين!

تُركان : (في حدَّة) ماذا حدث يا خاقان! ما الذي غيَّرك هكذا؟

هليمكوف : (في نفس حاله) أبداً يا تركان.. (في نفس الوقت يأتي صوت مصطفى غاضباً).

صوت مصطفى: وأين رأيتها أيتها الجارة، أين؟

تُـركـان : إنـه صوت والـدي. (تنـطفىء الأضـواء بينـما يختفيـان بسرعة من الناحية اليمنى كأنهما يفرّان. ينسدل الستار. موسيقى تغيير المشهد. الكشاف الذي في الواجهة يضيء الستار).

• • •

المشهد الثالث

(منزل بونياتفسكي. نفس الديكور. الوقت قبيل المساء من نفس اليوم. يجلس بونياتفسكي على مقعد يدخّن سيجارته. يدخل شامتروف مبتهجاً).

*
**

بونياتفسكي : (إلى شامتروف)، أين أخوك الكبير؟

شامتروف : إنه هناك، يتجوّل في الحديقة.

بونياتفسكي : اذهب وناده. ما الذي يشغله في الحديقة؟

شامتروف : (في حيرة) لا أدري، لأذهب وأرى.

بونياتفسكي : هيا، اذهب!

صوفيا : (تدخل من الباب الأيمن وتقول لبونياتفسكي) ماذا هناك؟ مع من تتحدّث؟ (تتّجه إلى النافذة).

بونياتفسكي : وما دخلك أنت؟ وماذا يعنيك في هذا؟

صوفيا : (وهي لا تحفل به) الولدان قادمان. لكن الولد الكبير ما زال متعب الأعصاب.

بونياتفسكي : لا أستطيع فهم ما حدث لهذا الكلب؛ فمنذ زمن طويل وهو على حاله هذا، غاضب دائماً، متوتر دائماً. سأخبر إدارة المدرسة حتى ينتبهوا له. (هليمكوف وشامتروف يدخلان من الباب الأيسر. هليمكوف يجلس على مقعد عند حافة النافذة، غير عابىء بما حوله. تشير صوفيا لشامتروف ناحية هليمكوف كأنها تقول له: ماذا هناك؟ يهز شامتروف رأسه وكأنه يقول: لا أدري. منذ فترة وبونياتفسكي ينظر إلى هليمكوف بضيق وتحدٍّ. يستمر في كلامه ويقول) ماذا هناك؟! ماذا بك؟ لقد سبَّبت لي الضيق والتوتر، ثم ما هذا الادِّعاء بمعرفة كل شيء. (بشدَّة) هيا، قل لي ما هذا التغيُّر الذي حدث لك؟

هليمكوف : أي تغيير تتحدَّث عنه؟ هذا من تصوُّرك فقط يا والدي. قد يكون التغيير قد حدث فيك أنت، لأنك لم تعد تحبني كالسابق، ألاحظ أنك تتعقَّب كل حركاتي بشك. وتظن أنني غير عارف بهذا.

بونياتفسكي : (ينظر إلى صوفيا بضيق) إذن، يعني أن الأمر كذلك؟

صوفيا : ماذا بك يا ولدي، لماذا تبدو عصبياً بهذا القدر؟

هليمكوف : (ناهضاً من مكانه) لا تسأليني يا أمي، وأنا بالتالي لا أستطيع معرفة السبب، لقد قمت بعمل سيِّء جعلني أضطرب، وهذا الاضطراب أوقعني في هذا المأزق الذي

أعيشه، ومن في مكاني ـ أيّاً كان ـ بشرط أن يكون حي الضمير سيعاني من نفس الاضطراب الذي أعاني منه.

(صوفيا في فضول، بونياتفسكي يأخذ في إشعال سيجارة أخرى، شامتروف يثب من مكانه ليحضر مطفأة سجائر إلى بونياتفسكي، يسير شامتروف بعد ذلك نحو النافذة. هليمكوف يتطلّع من النافذة إلى الخارج).

هليمكوف : (ملتفتاً إلى الخلف) لا أستطيع الإفصاح يا أمي، ذلك لأن أحداً منكم لا يمكن أن يصدِّقني، بل قد يهتزّ حبكم لي وثقتكم فيَّ. وأنا يا أمي راضٍ باجترار هذا الألم بمفردي بعيداً عن كل الناس. أرجوكِ ألّا تضغطي عليَّ أكثر من هذا.

بونياتفسكي : (غاضباً، يقفز من مكانه) ماذا يعني هذا؟ أنا كبير هذا البيت، والبيت مسؤوليتي. وهذان الولدان لا يفاتحانني في مشاكلهما. بأي منطق يحدث هذا، بل وفي أي منزل؟!

صوفيا : ولكن يا بونياتفسكي . .

بونياتفسكي : (مقاطعاً كلامها) اسكتي أنت أيتها المرأة! (يذرع الغرفة جيئة وذهاباً في حدَّة واضحة وتوتر ملحوظ).

هليمكوف : (يوجه كلامه إلى بونياتفسكي) مَنْ مِنَ الآباء يتصرَّف تجاه أولاده مثلما تفعل أنت يا أبي؟ ألا ترى أنّ من الواجب أن تقترب من ابنك لتقول له: «يا بني ماذا يضايقك؟

أخبرني حتى أجد لك حلاً؟» لكنك يا أبي ــ منذ وعيتُ ــ لم تفعل هذا قطّ معي.

بونياتفسكي : (بشدة) نعم؟ وماذا كان في إمكاني أن أفعله؟ لم أكن أستطيع تحمّل كل هذا.. والواقع أني..

صوفيا : (مقاطعة كلامه) هيا قُلْ.. هيا تحدَّث.. أكمِل..

بونياتفسكي : (مقاطعاً كلامها) اخرسي أنت يا امرأة!! (يجلس تمرُّ لحظة سكون).

هليمكوف : (ببطء وكأنه يقطع السكون)، إني أكذب عليها. ما قلته لها كان كذباً يا أمي.

صوفيا : (بفضول) ومن هذه يا ولدي؟

شامتروف : (يبتسم) تُركاااان.

بونياتفسكي : (فجأة) يعني؟

شامتروف : الفتاة التي يحبها أخي الكبير.

صوفيا : (مُمْتَنَّة) الفتاة التي يحبها أخوك الكبير؟

شامتروف : (ينهض. ينظر إلى هليمكوف ويقول وهو يخرج) نعم! نعم!

صوفيا : (بنفس الإمتنان) فتاة تحب إبني؟!.. (تتقدم إلى وسط الغرفة) واسمها تُركان؟ (إلى هليمكوف) أهي جميلة يا ولدي؟ أتليق بك؟

هليمكوف : (مستغرقاً في التفكير) جميلة؟؟!! أهذه كلمة يا أمي؟. . إن شعرها أسود فاحم طويل، عيناها: مآقيها درّ. خداها حمراوان عندما تخجل. قوامها رقيق طويل. كل شيء فيها جميل أكثر من الجمال العادي. لكن أكثر ما يعجبني فيها يا أمي، قلبها. . ذلك القلب. . (بونياتفسكي يحدجهما بنظراته غاضباً، وهليمكوف مستمراً في حديثه) ثلاثة أشهر كاملة مضت على تعرّفي بها يا أمي (يقترب جيداً من صوفيا) أقول لكِ كيف تعرفتُ عليها يا أمي؟ كان ذلك يوم سبت قبل شهرين من الآن. وكان شامتروف قد عاد إلى المنزل. وكنتُ أنا أسير في «بورغاز»[1]. وبينما كنت أتّجه نحو الساحل، رأيت عدة شبان وقد ضيّقوا على فتاة الطريق ليعترضوها، وكانت الفتاة في موقف ضعيف لا حول لها فيه ولا قوة. (ينهض وهو يقوم بحركات وكأنه يترك حقيبته أرضاً)، ألقيت بحقيبتي أرضاً. وجريت لإنقاذها، فترك هؤلاء الشبان الأوغاد الفتاة، وهربوا. . كلهم. في ذلك الوقت بالضبط تعارفنا. سألتني هذه الفتاة عن اسمي (يسكت لحظة. بونياتفسكي يتابعه بفضول)، سألتها أنا عن اسمها فقالت: تُركان. أعادت سؤالها عن اسمي يا أمي، فوجدتُ نفسي حائراً لا أدري

---

(١) بورغاز: قصبة قريبة من صوفيا عاصمة بلغاريا.

ماذا أفعل ولا ماذا أقول، وسرعان ما خرجت من فمي في تلك اللحظة وبشكل غير إرادي كلمة «خاقان»، يعني عرفتها بنفسي على أن اسمي خاقان. (بونياتفسكي غاضباً. ينهض من حيث يجلس، ثم يجلس مرة أخرى)، وهي الآن تعرفني بهذا الاسم؛ مع أني إنسان يختلف تماماً عن المعنى الذي تحمله هذه الكلمة (بونياتفسكي في أشد حالات الغضب)، فخاقان يا أمي اسم مسلم.

بونياتفسكي : أنت كلب وابن كلب. لماذا لم تعرِّف نفسك بصراحة. لماذا لم تقل إنك بلغاري نصراني، أليس للبلغار وجود. (وقد بلغ به الغضب حدّ الارتعاش)، قل لي لماذا لم تخبرها بهذا؟!

هليمكوف : (وقد ارتبك) لم أستطع يا أبي. لم أجد نفسي تطاوعني على ذلك، لكني عازم على التصريح لها بهذا في أول فرصة. (يجلس بونياتفسكي، يلتفت هليمكوف إلى صوفيا). ومنذ ذلك اليوم يا أمي ونحن نلتقي في تلك الأرض المرعى بجوار منزلهم. من يُحِبُّ يُحَبُّ يا أمي. إنها تحبُّني وأنا كذلك أحبها. الحب الحقيقي يمكن أن يواجه كل شيء يا أمي، كل شيء يذوب أمامه: الغضب والحقد بل حتى النفور والاشمئزاز، كنتُ أكنُّ حقداً هائلاً لأمين علي الساعاتي، كنت بالفعل أنفر منه، لكني

الآن أحبُّه حبّاً جمّاً. ولا سيَّما القصص التي يحكيها لي، والكلمات التي أسمعها منه، ويزداد يا أمي إعجابي به وبتُركان يوماً بعد يوم.

صوفيا : (في حنان) ابني! ولدي حبيبي!

بونياتفسكي : (بسخرية) سيصيبك الجنون إذا واصلت شغل نفسك بأشياء تافهة هكذا يا هليمكوف. ستدخل التاريخ من أوسع أبوابه.. التاريخ! سيكتبون في الكتب بعد ذلك أنك البلغاري الذي أصابه الجنون في حب فتاة مسلمة تركية. وستصبح يا هليمكوف موضوع أهزوجة يتغنّى بها المسلمون.. (يضحك بحقد).

هليمكوف : (لبونياتفسكي) جنون؟ إنك أنت الذي سيُجن يا أبي. ستأتي عروس ترفل في زينتها فيصفِّق لك كل الناس ويقولون إن بونياتفسكي قد زوَّج ابنه بفتاة تركية، وأحس تجاه أبي أنني قمت بعمل عظيم.

بونياتفسكي : عمل عظيم! عمل عظيم! إذا أسميت هذا عملاً عظيماً فإني أرثي لحالك بكل تأكيد. أرثي لذهاب عقلك هذا الصغير، إن الشيء الذي تراه جَمَلاً ما هو عندي غير برغوث.

صوفيا : (لبونياتفسكي) ليس لك الحق في التهكم بمحبوبة ابني.

بونياتفسكي : (بخشونة وشدة) اخرسي أنت يا امرأة، لي الحق في التصرف كما أريد، أنا رئيس هذا البيت، وأنا مسؤول عنه. وكأن ثرثرتك بين الحين والآخر لا تكفي حتى تأتي الآن لتثيري لنا مشكلة فتاة.

هليمكوف : (بنفس الخشونة) كفى يا أبي! كفى! ألم تتزوَّج أنت أمي بعد حب؟ ألم تكن تفكِّر في أمي مثلما أفكِّر أنا في تُركان؟ فكيف إذن تلقي بأحاسيسي ومشاعري جانباً؟ ما هو احتياج البشر غير أن يُحِبُّوا ويُحَبُّوا؟!

بونياتفسكي : نعم؟! ليس لي حاجة إلى الحب ولا إلى غيره.

شامتروف : (يدخل) واضح أنه ليس لديك قلب حتى تحب.

بونياتفسكي : (بشدة لشامتروف) لا ينقصنا إلَّاك يا ولد. (شامتروف يخبِّىء وجهه بيديه خوفاً).

شامتروف : (يخبِّىء وجهه كلما نظر بونياتفسكي إليه)، وأنا لا أقف في صفِّك أبداً. إنك بهذا ستبقى دائماً بمفردك يا أبي...

بونياتفسكي : (صائحاً) لا تتحدَّث أمامي هكذا يا ولد!!

صوفيا : (متدخلة في الكلام) كفى يا ولدي. لا تكمل كلامك.

هليمكوف : (لصوفيا) كفى يا أمي، كم في هذا اللقاء صحبة ممتعة!!

صوفيا : ولكن يا ولدي لقد أطلتم الكلام كثيراً، والوقت متأخر الآن. تناولوا طعامكم ثم اعملوا ما شئتم. (يجلس بونياتفسكي، تلتفت إليه). هيا لنأكل.

شامتروف : (ناهضاً كأنه يثب)، أَكْلٌ؟

بونياتفسكي : كلوا أنتم، أما أنا فسآكل فيما بعد. (يخرج هليمكوف وشامتروف وصوفيا. بونياتفسكي يراقب الباب ثم ينهض من مكانه. يُخرج زجاجة من تحت مقعد ويبدأ في احتسائها. الموسيقى هادئة جداً. يحتسي من الخمر كثيراً. الموسيقى تزداد حدة. يستقيم. يطلق قهقهة ممزوجة بالحقد). زواج؟ وبفتاة تركية؟ إذا وافقتُ على هذا سيسخر كل الناس مني. وستنهار مبادئي. هاهاها... مع أن غايتي جد مختلفة. (يتجشأ) إني خُلقت لكي أنتصر.. أنتصر.. وليس لديّ أي طاقة لتحمُّل الخسائر. (ضحكة سكّير) أنا عقيد.. عقيد تفخر به بلغاريا. أحمل على كتفي أصعب واجب. لكني سأنجح ولا بدَّ أن يكون النصر لي. النصر.. آه.. آه.. هاهاها.. (تغور عيناه) سأدفنهم جميعاً.. سأقضي عليهم.. إني أكبر قائد في الدنيا.. والنصر.. النصر.. النصر.. لي. هاهاها. (الموسيقى سريعة.

ساقاه لا تستطيعان حمله) هاهاها. هاهاها. (ينهار على الأرض. الموسيقى. الآخرون يدخلون).

هليمكوف : عاد إلى الشرب مرة أخرى، وعلى لحم بطنه. لا أستطيع أن أفهم لماذا يشرب كل هذا القدر من الخمر؟ (تهم صوفيا أن تنهض بونياتفسكي من مكانه).

شامتروف : (لصوفيا) لا يا أمي، دعكِ منه، فإنه الآن ثقيل كالحمل الثقيل. (إلى هليمكوف) ساعدني يا أخي (يحمل الاثنان بونياتفسكي ويضعانه ممدَّداً على مقعد).

صوفيا : (للآخَرَيْن) أفقد وعيه؟

شامتروف : إنه الآن في عالمه الخاص. يتنزَّه في جنَّةِ مِثاله. (يمسح برفق وجه بونياتفسكي) والدي بطل. . (تأخذ صوفيا في تنظيف المكان).

هليمكوف : (إلى صوفيا) أمي، هل انتهيت من التنظيف؟

صوفيا : نعم يا ولدي.

هليمكوف : لم أستطع شرح ما كنت أريد قوله، لأن والدي استهزأ بي. أيمكن أن تستمعي إليّ قليلاً؟!

صوفيا : طبعاً يا ولدي.

هليمكوف : لا أدري من أين أبدأ كلامي.

شــامتروف : من بـدايته، يضـايقني الاستماع المتكـرِّر، كما أن لـديّ واجبـاً مدرسيـاً لا بد من أدائه. (يخرج) طابت ليلتكما.

صــوفــيــا : وليلتك أيضاً يا ولدي. (إلى هليمكوف) قل يا ولدي، فإني مستمعة إليك.

هليـمكوف : (في خجل) فهمتُ من أحاديثنا أن الفتاة تحبُّني، تسألني كل مرة عن رأيك يا أمي، وأنا أقول لها إنك معجبة بها، في كـل مرة أحب أن أقـول لها الحقيقـة لكني لا أجرؤ، فـالحب الذي تكنُّـه لي يمنعني من قول الحقيقـة، أعاني كثيـراً يا أمي من هـذا الكـذب، لكني أعلم جيـداً أن سراب الكذب لا يمكن أن يخبِّىء شمس الحقيقة في أي وقت من الأوقات، فالإنسان لا يخدع إلاَّ نفسه يا أمي. وأسوأ ما في الأمر أيضاً خداع الإنسان لنفسه. (مهموماً) قالت في آخر لقاء بيننا أنهم يؤمنـون بعقاب الخـائنين. ألست خائناً يا أمي؟ لكنها لا تعرف هذا، وهي تحبُّني.

صــوفــيــا : (متأثِّرة بكلامه) اهدأ يا ولدي. سأذهب لأطلب لك يد هذه الفتاة. سنزوِّجها لك.

هليـمكوف : (مقاطعاً كلامها) وهل تتصوَّرين أن والدي سيوافق على الذهاب معك؟

صــوفــيــا : (بـتردد) لا أدري. نـعم.. يــذهـب بـالـطبـع.. ولِمَ لا يذهب؟!

هليمكوف : تتَّفقان مع أسرتها ثم نتزوَّج يا أمي؟

صوفيا : نعم يا ولدي.

هليمكوف : أصبحت أؤمن الآن بأن الإنسان لا يكفيه حب الوطن وأمته فقط لكي يكون جديراً ببعض الأمور.

صوفيا : (وقد ازدادت تأثراً) يكفي يا ولدي. يكفيك حب وطنك وأُمَّتك ولا تفكِّر فيما عدا ذلك. (شامتروف وفي يده كتاب. يمد رأسه من الباب).

شامتروف : ألم ينتهِ بعد حديثكما هذا؟ (إلى هليمكوف) أخي! حتى لا تكون دروس المدرِّس إيڤانوف في التاريخ صعبة عليك غداً، تعال لأشرحها لك، أو على الأقل أشرح لك آخر درس شرحه لنا.

صوفيا : (بينما ينهض هليمكوف ويذهب) ابني!!

هليمكوف : (يلتفت إلى الخلف) تفضلي يا أمي.

صوفيا : (وكأنها تخبِّىء شيئاً) أبداً. . أبداً يا ابني! (وهي تبتسم) طابت ليلتك.

هليمكوف : طابت ليلتك يا أمي (يخرج).

صوفيا : (تطيل النظر قليلاً إلى هليمكوف وهو ذاهب. ثم تلتفت إلى بونياتفسكي. ترفع هامتها. عيناها دامعتان). يا ربي كن في عوننا. تخفت الأضواء. وهي ملتفتة إلى

بـونيـاتفسكي تقـول): سيحـدث كـل مـا أريـده يا بونياتفسكي، واعلم أن هذا سيقهرك. (يسدل الستار حوالي ثلاثين أو أربعين ثـانية ثم يفتح ثانيـة. المسرح مضـاء بشكـل عـادي. صـوفيـا ليست عـلى المسرح. بـونياتفسكي مـا زال راقـداً. يبـدأ الآن في النهـوض. يعتدل متثائبـاً. يدعـك عينيه. يمسك وسطه. تـدخل صـوفيـا في هـذه الأثنـاء من البـاب الأيمن. ينـظر بونياتفسكي إليها شزراً).

بونياتفسكي : هـل ذهب الـولـدان؟ أَنِمتُ هنـا منـذ أمس.. (ضارباً صدره) أووف. لقد أصابني البرد غالباً (بخشونة) لماذا لم توقظوني حتى أتمكَّن من النوم في سريري؟.. (متثائباً) أي يوم هذا الذي نحن فيه؟

صـوفـيـا : (بتهكم) السبت.

بونياتفسكي : (غير مبال) ماذا؟

صـوفـيـا : (غاضبة) السبت.

بونياتفسكي : حسناً حسناً سَمِعْنا، سأخرج لأستنشق هواءً نقياً قليلاً. (يخرج).

صـوفـيـا : (وهي تنـظِّم الغرفـة) لم يعد الـرجل يفـرِّق بين السبت والأحد. وحالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. أناديه صباحاً لتناول الإفطار، فيلتفت إليَّ بضيق ويصيـح بـي قائلاً:

اغـربـي عن وجهي يا امـرأة، وحان الآن وقت الـظهر وما زال نائماً، كم قاسيت بسببه في حياتي، تحمَّلتـه على مضض من أجل أبنائي، وإلَّا فمن يستطيع تحمُّله. إنه لم يكفّ يوماً عن قهري. ولم يترك يوماً إلَّا ويأمرني بوضع لحم الخنزير في الطعام، إن هذا شيء لا يحتمل، ويُخرج الإنسـان عن طوره. (يـدخل بـونياتفسكي من البـاب الأيسر الذي خرج منه، وعلى كتفه حمل خشب).

بونياتفسكي : اسحبـي المنضدة إلى الوراء قليلاً، وسأكسِّر الخشب[1] هنا. هذا الخشب أتيت به للمدفئة.

صــوفـيــا : وكأن هذا هو ما ينقصنا. تقطيع الأخشاب وكسرها هنا في داخل المنزل!! أأنت مجنون؟!

بونياتفسكي : اسكتي يا امرأة. أحب ذلك هنا، هنا!!

صــوفـيــا : هـل رأيت أحـداً قط يكسِّر الخشب ويقــطعـه داخــل الغرف؟ هيا اخرج لتكسِّره في الخارج.

بونياتفسكي : اخرجي أنت لتجلسي في غرفـة أخرى، وسـأكسِّر هذه الأخشاب هنا، أهذا مفهوم؟ هنـا!! (يخرج من البـاب الأيسر).

---

(١) من عادات البلاد الباردة أن يقوم أهلها بجمع الأخشـاب في كتل قبيل مقدم فصـل الشتاء، ثم يكسِّرونها إلى قطع صغيرة ليسهل وضعها في المدافىء.

صـــوفـــيـــا : (تجمع الخشب وتلقيه خارجاً) هل جُنَّ الرجل أم ماذا؟ هل يكسر أحد الخشب داخل الغرف؟! (تلقي الخشب من الباب الأيمن).

بونياتفسكي : (وعلى كتفه دعامة خشب وفي يده منشار. يـدخل). ألم أقـل لـك اسحبي المنضـدة إلى الخلف؟ (بـدهشـة وغضب)، ما هذا؟ أألقيت الخشب خارجاً؟!

صـــوفـــيـــا : (بحدَّة) أووف! اخرج وكسِّره، مع العلم بأن الـولدين على وشك العودة من المدرسة. وسيضحكان عليك كثيراً إذا رأياك على هذا النحو.

بونياتفسكي : (وهـو يضع الخشب عـلى كرسي ثـلاثي الأرجل) أريـد تقطيع هذا الخشب، هنا. وهذا كل ما في الأمر. وكـل مـا عـدا ذلـك هـراء. أليس هـذا المنـزل منـزلي، إذن فلأعمل فيه ما شئت وبعد هذا فكله سواء. كما لا بد أن تقولي لولديك هذين أن يكفّا عن مضـايقتي، وإلاَّ فلن يحـدث لهما خـير. اخرجي الآن من هنـا وادخلي غـرفة أخـرى. وكفّي أيضاً عني لسـانـك هـذا. وإلاَّ فلستُ مسؤولاً عن النتيجـة. ألا تسمعين؟.. هيـا اخرجي. (تغضب) أمـا زلت واقفة؟! (صـائحاً) هيـا اخـرجي، قلت لك اخرجي..

صـــوفـــيـــا : (بحدَّة) ستبحث ذات يوم عن فتحة تخبِّىء فيها رأسك، ولن يكون هذا البيت ـ وقتها ـ ملجأ لك.

بونياتفسكي : (بحدَّة) أقول لك مرَّة أخرى اخرجي من هنـا. . هيا! (يسير نحو صوفيا. تخرج صوفيا وكأنها تهـرب) ما هـذه المصيبـة التي حلَّت بنا. تمـرَّدت الأم مثلما تمرَّد ولـداها. (يتفل في كفَّيه ثم يأخذ في كسر الأخشاب. يـدخـل هليمكوف في نفس اللحظة من الباب الأيسر. ينظر في دهشة وتعجُّب إلى بـونيـاتفسكي. يسعـل. يـرتعـد بونياتفسكي. يسقط المنشار من يده).

هليـمكوف : منذ متى يا والـدي يقطع النـاس أخشابهم في البيـوت. ما سبب هذا؟

بونياتفسكي : وما دخلك أنت؟ مزاجي يدفعني لهذا، أتحاسبني؟!

هليـمكوف : لا أحاسبك، ولكن أليس هذا غريباً يا أبـي؟

بونياتفسكي : ولِمَ الغرابة؟

هليـمكوف : أبـي! . . سأتحدَّث معك في مسألـة هامـة. فهل تقبـل طلبي هذا؟ مع العلم بـأني لن أطلب منك بعـد الآن شيئاً قط.

بونياتفسكي : أي طلب؟ ثم كيف تحدِّثني هـكـذا وتـريـد بعدهـا أن أحقق لك طلبك؟ ما معنى هذا؟

هليـمكوف : ولماذا تصرخ فيَّ هكذا؟ من يرانا على هذا الشكـل يظن أننا غريمان في مشاجـرة، مع أني انتهـزت فرصـة غياب أمي وأخي شامتروف وجئت لكي أتحدَّث معك بمفردنا، سأحدِّثك عن المسألة إياها، مسألة تُركان.

بونياتفسكي : تُركان؟! . . مستحيل. . لا يمكن. . قلتُ هذا منذ ذلك الوقت. مستحيل. . والواقع أني. . منذ سنوات. .

هليـمكوف : (فجأة) نعم منذ سنوات. .

بونياتفسكي : ألم أقل مستحيل؟ (يأخذ المنشار ويبدأ في نشر الخشب).

هليـمكوف : غير مستحيل يا أبـي. حتى لو اعترضت فإنَّ هذا الأمر سيحدث. (يأخذ المنشار ويرميه جانباً، والخشب أيضاً، ويخرج).

بونياتفسكي : (من خلفه) لا، لن يحدث. . تقـول سيحدث؟. . لن يحـدث. وافعل مـا بـدا لـك!!!. . تقـول لي حتى لـو اعترضتُ؟! أليس كذلك؟ (صائحـاً) لن يحدث. . لن يحدث. (تنطفىء الأضواء. كشاف كهربائي يضيء من أعلى ويتعقَّب بونياتفسكي. موسيقى مرعبة تشبه البرق. بونياتفسكي يخاف).

الصـوت : سيحـدث. . سيحـدث. . (ينـظر بـونيـاتفسكي ذات اليمين وذات الشمال في دهشة).

بونياتفسكي : لن يحدث.

الصـوت : (أجش وأخنف) سيحدث. . سيحدث. . تذكَّر. . عُدْ إلى ما قبل أعـوام. . إلى الوقت الـذي أرسلتني فيه إلى المنفى. . إلى الـوقت الذي أخـذت فيه مني زوجتي. . انـظر. . ها هـو ابني قد كـبر. . وسينتقم لي، غـايتـك القذرة ستكون مقبرة لك. وَلَدَاي يعرفان أنَّك والدهما. لكن أولادهما سيعرفـان الحقيقة. وأنـك لست جدّهم. (الكشاف يتعقَّب بونياتفسكي. الموسيقى تخشن. يبـدو بـونياتفسكي وكـأنه يهـرب. يسقط ضوء الكشـاف من الزاوية الشمالية من أعـلى، على بـونياتفسكي الهـارب. بونياتفكسي يزداد ارتباكاً. ينحصر بين ضوئين).

الصـوت : لن يناديك أحفـادي بكلمة يـا جدّي. لن يقـولوا لـك يا جدّنا. . لن يقولوا لك يا جدّنـا. (ينقطع الصـوت. أصوات أقدام تقترب. يمسك بونياتفسكي رأسه مع كل خطوة من خطوات هذه الأقدام، ويزداد انهياراً).

بونياتفسكي : (بين ضوئـين) كفى!! لا تقترب مني. . (ينهـار أرضاً. الموسيقى سريعة. الأضواء مركَّزة على بونياتفسكي).

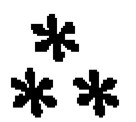
[ستـار]

• • •

الفصل الثاني

المشهد الرّابع

(منزل بونياتفسكي. نفس الديكور. الزمن بعد أسبوع مما مضى. الوقت: نهاية الظُّهر. هليمكوف في النافذة ينظر إلى الخارج. شامتروف بجانبه يقف منتصب القامة. يده في جيبه، ووجهه نحو الجمهور).



شامتروف : لقد انتصرت أخيراً، بضغطك المستمر أجبرت عقيدنا هذا أن يوافق أخيراً، ما زلت أتعجَّب حتى الآن وأفكر كيف حدث ما حدث، لا تُقلق بالك، فإنهم لا محالة موافقون. أيمكن أن يجدوا من هو أفضل منك وأحسن؟

هليمكوف : (ملتفتاً إليه بوجهه) وإذا رفضوا؟

شامتروف : رفضوا؟ لا تَقلق. كم من فتيات حِسان في غاية الروعة يفقد الواحد منّا عقله أمامهن، يتمنَّين واحداً مثلك.

هليـمكوف : إننا نعرف أن أمي وأبـي سيكذبان عليهم مثلما كذبت أنا عليها، لقد تصرفتُ تصرفاً خاطئاً جداً يا أخي، لو كنتُ قـدَّمت نفسي إلى تُـركـان في ذلـك اليـوم عـلى أني هليمكـوف، ربما لم يكن قـد حدث لنـا كل مـا يحـدث الآن. لكني لم أكن أرغب في هـذا، وكـأني لم أكن أرى نفسي جديراً بهذه الشهامة. انطلقت كلمـة خاقـان من لساني بسرعة. . (بتمرد) ليتها ما خرجت من فمي.

شـامتروف : إنك تستغرق وتتوه في التفكير أحياناً وأنت تتحـدَّث في هـذا الأمر، ثق أن هـذا لا يستحق كل هـذا القدر من التفكير.

هليـمكوف : (يهـز رأسه كـأنه يقـول نعم. شارد الـذهن) نعم كثيراً مـا أستغرق في التفكـير، إني ــ والحق ــ كثير الشرود، هـذا صحيح، أريـد حلاً. وهـذا الحـل لن يكـون إلَّا بالتفكير، ذلـك لأن الناس يعـثرون على أجمـل الأشياء عندما يفكِّرون.

شـامتروف : (وكأنه يتألَّم لذلك) أخي. لنخرج إلى الحديقة قليلاً إذا أحببت. ما رأيك؟

هليـمكوف : اخرج أنت وفكِّر، وسأنتظرهم أنا هنا في هدوء. (يقترب هليمكـوف من النافـذة. يستغرق في النـظر إلى خـارج النافذة. يبدو كأنه لا يحس بوجود شامتروف).

شـامتروف : (وهو يحدجـه بنظراتـه) أهناك أحـد قادم؟ (هليمكـوف لا يسمع) أم أنهما قادمان؟ (هليمكوف لا يسمع، يفتح شـامتروف المـذيـاع في تعبـير غـاضب متهكِّم. يسمـع «أوبريت» من المذياع، فيقلِّده. ثم يقول وهـو يغلقه): إنه ليس بلحنٍ جميل. (وهو يشير إلى هليمكوف) وليس في هذا أيضاً أي مذاق، بالضرورة.

هليـمكوف : (ملتفتاً إلى الخلف) أما زلت هنـا ولم تخرج إلى الحـديقة بعد؟

شـامتروف : (كـأنه يـرتاح) وأخيـراً سمعتَ. . إني خـارج. . أتـأتي معي؟

هليـمكوف : (جالساً على مقعده) اذهب أنت، فلن آتي معك. (يسير شامتروف مدة في داخل الغرفة وهو يُصَفِّر. ثم يخـرج. ينـظر هليمكوف إليـه فترة). شـاب مـرح. ليتني كنت مثله، ولكن كيف! يـترك الأمور عـلى بساطتهـا، وكـلٌّ شيء على راحته. وهذا شيء طيب، لكني لا أستطيعه. (ينهض) تُـرى هل عَـرَفَتْ تُـركـان الآن من أنـا؟ هـل انكشف السِّتْر، وطفا على وجه الماء ذلك الكذب الذي كذبته عليها منذ شهـور. مات الحب. قتلوه. والقـاتل أنا. أنا قاتل هذا الحب. وأقاسي الآن بشدة، من عقاب هـذا الحب. كان يمكن أن أحب غـيرهـا. لكن لم يكن هـذا في وسعي. ومع ذلـك فـأنـا سعيـد. سعيـد لأني

أحب. (يغرق في عالم آخر مختلف) لماذا يحدث كل هذا؟ ماذا لو صدَّقوا أيضاً كذب أبـي. . (يزداد شروداً) لكن مستحيل. ماذا أفعل بالحب وهو معاناة لي. (يجلس على كـرسي عـلى اليسار. سكـوت). مـع أني. . (يشـير إلى الباب) أتخيَّل دومـاً، دخولهـا من هذا البـاب، في ثوب زفاف جميل أبيض. (تدخل تُركان من البـاب الشمالي. ترتدي ثوب زفاف. ضوء كشاف أزرق غامق يُسلط على تُـركان. تبـدو كالخيـال تمامـاً. يُسلَّط من الأمام، عـلى هليمكـوف أيضـاً، ضـوء كشـاف آخـر غـامق اللون. هليمكوف في أداء خيالي تماماً).

تُـركـان الخيـال: معنى هــذا أنـك كنت تكــذب عـليَّ. حجبت عني شخصيتك الحقيقية. (تهرع نحو هليمكوف وكأنها تهدِّده بسبابة يدها اليمنى).

هليـمكوف : (من حيث يجلس، وبنفس الأداء الخيــالي)، وأخيــراً اتَّضـح لك الأمـر. وعرفت الحقيقـة. . أما زلت تحبِّينني يا تُركان؟ تحبِّينني رغم كل شيء؟ (ينطفىء فجأة الضوء المُسلَّط عـلى تُركـان. يجـري هليمكـوف نحـو تُـركـان الخيـال. وفي نفس اللحظة يضيء مـرة أخـرى الضـوء الذي كان مسلَّطاً عـلى تُركـان. يتراجـع هليمكوف إلى الخلف).

تُركـان الخيال: كم أجدت خداعي. قلتَ لي أنّ اسمك خاقان، وقلتَ أيضـاً أنـك تـركي مسلم. (تتقـدَّم بخـطى وئيـدة نحـو هليمكوف. هذا التقدم لا ينبغي أن يتعدّى عـدة خطوات في أي وقت). إذن فإني لن آتي إليك لأنـك لن تفترق عن البلغار الآخرين في شيء. (بشدة) ذلك لأنـك تخدم نفس الغاية التي يخدمها البلغار. إنك خـائن.. خائن.. (تجثـو على ركبتيها وكأنها تبكي بتشنّجٍ).

هليـمكوف : (بنفس وضعه السابق) تُركان.. تُـركان.. (يمـدّ يديـه نحـو تُركـان الخيـال) هـل انتهى كـل شيء؟ بـدونـك لا أستطيع عمل شيء. (على ركبتيه) لقد تعلَّمت منـك التفكير يا تُركان. (تقترب تُركان بخطوات متراجعة نحو الباب).

تُركـان الخيال: إنك لم تعد.. (يداها على وجهها وتبكي بحرقة).

هليـمكوف : الحب يا تُركـان. أحبّيني، أحبّيني. (تهزُّ تُـركان رأسهـا علامة الرفض. يخفت الضوء المسلَّط على تُركان. تختفي تركان. يجري هليمكوف نحو الباب. يتمـرَّد. يضرب الباب بقبضتي يديه. تضيء الأنوار. ينطفىء الكشاف.
يضيء المسرح بالضوء العادي. يدخل شامتروف في هذه الأثناء من الباب الأيسر الذي خرجت منه تُركان. تحرج هليمكوف بنظرات شاكَّة).

شـامتروف : ماذا هناك يا أخي؟ (في يده بعض حبات فاكهة جديدة) تعال، لنأكل تفاحاً. لم ينضج بعد لكنه يؤكل. (ما زال هليمكوف على الباب ينظر إلى الخارج) تعال! هيا تعال! (تاركاً التفاح على المائدة) ما كل هذا الذي أصابك؟

هليـمكوف : (محاولاً أن يخبِّىء ما به) ليس هناك شيء.

شـامتروف : سأخرج قليلاً. (يخرج من الباب الأيمن).

شـامتروف : (من ورائه) كما تحب يا أخي. (يقترب من الباب، ينظر يمنة ويسرة باهتمام. يلوي شفتيه). شيء محيِّر، إنَّه يمسك بالباب وينادي على تُركان. (يسـير نحو وسط الغـرفة. يـأخذ تفـاحة ويقضمهـا)، إنه خيـالي حالم، كـما يقول الأدبـاء.. محب عـاشق.. إنـه عـاشق.. يـا لـه من عاشق. تبّاً له! أيكون الحب هكذا؟ أوَتحلم وأنت واقف عـلى قدميـك؟ (يغلق عينيـه وهـو يتقـدم نحـو البـاب الشـمالي)، قف وجـاوبني.. لا تهـرب. قف.. (تبـدأ الموسيقى بينما يأخذ هو في الاختفاء. المسرح فارغ لفترة. صوت الموسيقى. يدخل بونياتفسكي وصوفيا من الباب الشمالي. ملابسهما مختلفة عما كانت في المشاهد السابقة. بونياتفسكي يرتدي ملابس مدنية أيضاً).

بونياتفسكي : (تاركاً الحقيبة التي في يده كـأنه يلقيهـا). أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ (يمسح عرقه).

صوفيا : قد يكونان في الحديقة. (تصمت الموسيقى).

بونياتفسكي : (بخشونة) لو كانا كذلك لرأيناهما ونحن قادمان.

صوفيا : أرجو ألاَّ يكونا قد ذهبا إلى بورغاز. . تُرى أيمكن أن يكونا قد ذهبا؟

بونياتفسكي : (بعصبية) بورغاز؟. . آه. . ما أسعدني لو كانا قد ذهبا بالفعل إلى بورغاز؟ ماذا أريد أكثر من هذا؟

صوفيا : ماذا كان سيحدث لو كانا هناك فعلاً؟

بونياتفسكي : وماذا يمكن أن يحدث. سيفعلان مثلك. يتحدثان، يثرثران ويرجعان. منذ عدة أيام وأنت لا تفتئين تثرثرين وتتكلَّمين. هل ارتحت الآن؟ لم أكن أنوي الذهاب، لكن ما كنت أفكر فيه كان شيئاً آخر. (يحتدّ في كلامه. يتوتَّر. يتَّجه إلى النافذة. يرقب المكان خارجاً).

صوفيا : أتراهما؟

بونياتفسكي : (بشدَّة) تعالي وانظري، يا امرأة، إذا كنت ستقولين الحقيقة لولديك فلا بد أن تفكِّري أيضاً في العاقبة؟. . إني قد ذهبت معك من أجل ترضية خاطر ولدك فقط، والنتيجة أن ذلك الرجل الغريب احتقرني. (صائحاً) أمسكني من رقبتي وألقاني خارجاً، طردني، وإني لا بد أن أحاسبكم جميعاً على هذه الإهانة التي عرَّضتموني لها، سأحاسبكم حساباً عسيراً، هل فهمتِ هذا؟

صــوفــيــا : ابني مقهور. وأنت السبب. ولو أن أحداً غيره . .

بونياتفسكي : (قاطعاً كلامها) اسكتي أنت يا امرأة، لا أريدك في هذا البيت أكثر مما أردته لك، ما يحدث في بيتي في هذه الأيام الأخـيرة من نكـد وهمّ ومعـارضـة، يُـظهـر لي أنــك لم تتمسَّكي بما وعدتِ به، إنك تدفعينهما كلما مرَّت الأيام إلى معـرفة الحقيقـة، لكني لن أترك لـك فعلك هـذا، وسأوقفك عند حدِّك، سأتخلَّص منكم قبل أن تفيقوا من سكرة النوم. (تتَّجه صوفيا نحو النافذة).

صــوفــيــا : (باضطراب) ها هما قادمان. . أنا خارجة لأني لا أستطيع أن أنقل لابني هذا الخبر السيِّء. .

بونياتفسكي : ولم لا تستطيعين؟

صــوفــيــا : (متوسِّلة) أتوسَّل إليك. لنخرج. أرجوك.

بونياتفسكي : (باستهزاء، ويضحك) لا تتوسَّلي إليَّ هكذا عبثـاً، فإني لن أخـرج. (تخرج صـوفيا) شيء لا يقـال!! ما أغبـى هذا، انظـري كيف سأقوله أنا. (يفكِّر لحظة) لا سيَّـما وأني سأقوله في وقت هما فيه على هذا القدر من السـرور والسعـادة. (يخرج من البـاب الأيمن. يدخـل في نفس الـوقت، هليمكوف وشـامـتروف من البـاب الشـمالي. هليمكوف كما هو بوضعه إيّاه).

شـامتروف : (وكأنه يسرّي عن أخيه) ارتحت قليلاً، أليس كذلك؟

هليـمكوف : نعم.

شـامتروف : حاول أن تبدو أحسـن من هذا.

هليـمكوف : ما هذا الكلام؟!! (يُسمع صوت بونياتفسكي)..

بونياتفسكي : (من الخارج) إنه شيء لا يقال، لكنّي سأقوله وبالكيفية التي أقـولهـا. (ينصت إليـه كـلٌّ من هـليمـكـوف وشامتروف).

هليـمكوف : (بفضول إلى شامتروف) لقد جاءا.. أسرع ونادهما.

شـامتروف : وماذا لو ناديتهما أنت؟!

هليـمكوف : لا تقف ساكناً هكذا. هيا!! أسرع! (يتّجه شامـتروف إلى البـاب. يدخـل بونيـاتفسكي في نفس اللحـظة إلى الداخل. يضحك).

بونياتفسكي : (بـاستهـزاء) مـا هـذا أيهـا الـوَلَـدان! أراكـما في سرور وسعادة؟!

هليـمكوف : (فجأة) ماذا حدث يا أبتاه؟ (ينظر هليمكوف وشامتروف إلى بونياتفسكي بفضول وحب استطلاع).

بونياتفسكي : ماذا كنتما تتوقعان؟ طردونا من منـزلهم. طردونـا، وهم يمسكوننا من تلابيبنا. وفوق هذا شتمـونا. قالوا إنـك ابن حرام. (يمسك هليمكوف رأسه فجـأة ويجلس على مقعد، ينظر إليه بونياتفسكي وهو يضحك).

هليمكوف : (وهو يسحب يده من على وجهه، ومن مكانه يقول): أصحيح هذا؟ أحدث هذا الفعل؟

بونياتفسكي : (خشناً) نعم!.. كنت تتحدّاني وتقول لي: «حتى إذا رفضت فإن هذا سيحدث» وها هو ذا قد حدث، والحق يقال إني مسرور سروراً عظيماً وأنا أراك في هذه الحالة. (يقهقه).

شامتروف : (يضع يده على وجهه حاجزاً عندما ينظر إلى بونياتفكسي) وأين السرور في هذا؟ أي أب مثلك يرى ابنه في هذا الظرف العصيب فيدخل السرور إلى قلبه.

بونياتفسكي : (صائحاً) اسكت.. مثلك لا يتكلّم! (ينزوي شامتروف خوفاً).

هليمكوف : (ينهض، يبتسم ابتسامة خفيفة،) أتظن أن هذا ضايقني يا أبي؟ إنك تخطىء إذا تصوَّرت السرور وهو يدخل قلبك من جرّاء هذا الخبر. لقد أخبرني أمين علي من قبل، أن هذا الأمر لن يتم. لا تفرح سُدًى يا أبي. فأنا لست بمتضايق، بالعكس إني سعيد جداً، ذلك لأنك صحَّحتَ الكذب الذي كذبتُ أنا به على الآخرين. (يتقدم إلى وسط المكان)، يمكن أن تطرأ متغيِّرات كثيرة ومختلفة على المحب، وليس لأحد قط الحق في اتهامه بالخيانة بسبب هذه التغيُّرات، هل يمكن لي أن أتغيَّر بسبب تركان؟ (تدخل صوفيا من الباب ونظرها مركَّز

علـى هليمكـوف)، لا، لا يمكن. أنـا لا أبيـع نفسي في سبيـل فتاة. (وهو يلتفت إلى صوفيـا) لا يمكن أن أبيـع نفسي يا أمي.

صـوفـيـا : (وكأنها تُسَرِّي عنه) ابني! .. ولدي.. ! اصبر، فماذا في أيدينا إلاّ الصبر، نصيبنا هكذا!

هليـمكوف : (يحتضن أمـه، تمسح صـوفيا عـلى شعره) الصبر؟! كل الناس يقولـون الصبر، ألا يمكن يـا أمي أن تقولي أنت بالذات شيئاً مختلفاً؟

بونياتفسكي : (باستهزاء) دعك من الصبر. هـيـا اجـرِ وخذ الفتـاة. هيا، لماذا تقف هكـذا؟ هـيـا اجـرِ وخذهـا، وبذلـك أكون قد قلتُ لك شيئاً مختلفاً عمّا يقوله الناس.

صـوفـيـا : (بشدة لبونياتفسكي) ألا يمكن أن تسكت؟!

بونياتفسكي : اسكتي أنت يا امرأة.

صـوفـيـا : (بخشونة) أنت الذي يجب أن يسكت.

هليـمكوف : (إلى صوفيا) أمي، كنت أعـرف أنكما سـترجعان صفـر اليدين، لكنه الأمل، عالم الأمل. والإنسان يعيش طالما أنه يحمل الأمل.

بونياتفسكي : الأمل! .. هاهاها.. عالم الأمل.. اعطِ نفسـك الأمل كـما تشاء. ولن يكـون لـديـك الأمـل فيـما أنت فيـه. هاهاها...

شـامتروف : (وهـو ينظر إلى بـونياتفسكي ويضـع يده حـاجزاً أمـام وجهـه) تتحدَّث كـأنك سـاعي بريـد ولست عقيداً في الجيش، سـاعي بريـد يحمل أخبـار شؤم. ألا تفكِّر في شيء آخر غير السوء يا والدي؟

بونياتفسكي : (يغضب كثيراً) لا تتكلم. اسكت! أجاء الوقت لتتدخَّل أنت في الكلام؟!

شـامتروف : لن أسكت. وسأتكلَّم. هه!

هليـمكوف : (إلى صوفيا) يا أمي، إني ذاهب إلى الغرفة المجاورة.

شـامتروف : انتـظر يـا أخي، إني ذاهب معـك. (يخـرج كـل من هليمكـوف وشامـتروف. ينـظر كـل من بـونيـاتفسكي وصوفيا إلى بعضهما البعض. لحظة سكوت).

بونياتفسكي : (قاطعاً الصمت) خـبر سيء؟! أي سوء فيـه. إنه لخـبر عظيم. أهناك ما هو أطيب منه؟ (يتمشّى بسرور).

صـوفـيـا : لا يمكن لأحد أن يصف مـا تفعـلـه بـأنـه عمل إنساني. وسيكون هذا ذات يوم عليك، لا، لك.

بونياتفسكي : (بحقد واضح، يضغط على أسنانه)، سأَسْحلكم جميعاً وسأقضي عليكم..

صـوفـيـا : (بهدوء) ستنال عقابك يوماً على كل هذا الذي تفعله.

بونياتفسكي : (بسخرية) لكنه يوم لن يراه أحد منكم أبداً.

صـوفـيـا : في ذلـك الوقت، ستصرخ وتتـوسَّل كـالكلب، لكنـك ساعتها ستصبح كمن يبذل جهداً يتبدَّد.

بونياتفسكي : (بنفس حالته الساخرة) نعم!!! أترين هذا؟!

صـوفـيـا : (بقوة) نعم، أرى هذا.

بونياتفسكي : (جالساً) ماذا كان حالك عندما كنت في مـواجهة ذلـك الـرجـل؟ (ينهض مقلداً صـوفيـا) ولكن يـا أخـي مصطفى.. يا أخي مصطفى.. (يجلس).

صـوفـيـا : انظر أنت كيف طردك وهو يكاد يضربك، آهٍ لو كـانت هناك مرآة لترى فيها حالك أو شكلك.

بونياتفسكي : وماذا عن حالتك أنت، أكنتِ تعرفين نفسك قطّ؟..

صـوفـيـا : دعني وشأني، وكن أنت في حالك.

بونياتفسكي : (بشدة) اخرسي يا امرأة..

شـامتروف : (متجهاً إلـى الداخل) أما زلتما حتى الآن في أخذٍ وردّ؟

صـوفـيـا : (بفضـول إلى شـامـتروف) مـاذا يفعـل أخـوك الكبـير يا شامتروف؟

شـامتروف : في الغرفة الأخرى. متمدد على الأريكة. يرقد عليها.

صـوفـيـا : يرقد؟

شـامتروف : نعم يا أمي.

بونياتفسكي : (إلى شامتروف) ولماذا لا يأتي هنا؟

شامتروف : (جالساً على مقعد) لقد غضب منك كثيراً، ولا يحتاج في الغالب إلى سماع كلامك الساخر مرة أخرى.

بونياتفسكي : أي كلام ساخر قلته؟ ألم تتعوَّدا على كلامي حتى الآن؟ أليس هذا حالي في كل وقت؟

صوفيا : لأذهب أنا إليه وأراه. (تخرج من الباب الأيمن. يطيل شامتروف النظر إلى بونياتفسكي قليلاً، ثم ينهض من مكانه. ويسير نحوه).

شامتروف : أبي، لماذا تتصرَّف تجاه أمي بهذا الشكل الغريب؟

بونياتفسكي : لا أدري.

شامتروف : أتلاحظ أنك لا تدريه؟

بونياتفسكي : ولم السؤال؟ أإليك أنت أيضاً لا بد أن أقدِّم تقريراً لتحاسبني عليه؟ أظن أنني لست مجبراً على الإجابة على أسئلتكم.

شامتروف : لا أدري لماذا تتصرَّف هكذا. . لا أستطيع فهم هذا.

بونياتفسكي : ولن تستطيع، فلا تجهد نفسك في التفكير عبثاً.

صوفيا : (وهي تدخل) إنه راقد، أعطيته الطعام فلم يأكل، عصبي جداً، يرفض حتى مجرد التفوه بكلمة أو اثنتين، ثم وبَّخني بشكل فظيع.

بونياتفسكي : (إلى شامتروف) فليأت إيڤانوف معكما غداً . وبذلك أتعرَّف إليه ، ثم نتداول أيضاً في أمر أخيك الكبير .

صوفيا : هيا، فالطعام جاهز. ثم لتستريحا بعد ذلك.

بونياتفسكي : ألن تقلي لنا لحم خنزير؟

صوفيا : (بشدَّة) فليكن لحم الخنزير هذا سُمّاً زُعافاً. (يُسْدَل الستار علامة على مضي الوقت بينما يخرج ثلاثتهم. ويبقى الستار مغلقاً من أربعين إلى خمسين ثانية. الكشاف المواجه ينير الستار. يُفتح الستار من جديد. ترتدي صوفيا ملابسها التي كانت ترتديها في المشهد الأول. تجلس صوفيا على مقعد).

بونياتفسكي : (من الخارج) وكأني لم آمر هذه المرأة طوال سبعة عشر عاماً بتدبير أمور ملابسي وكيِّها. أوف، أوووف. ما هذا القرف. ولكني أسألك أيتها المرأة. القبعة دائماً مُتْربة، التراب يغطّيها.

صوفيا : (تشير إلى الخارج) حالته تزداد سوءاً. ولقد هزأ واستخفَّ بحب ابني. مع أن واحداً مثله كان ينبغي . . .

بونياتفسكي : (يدخل من الباب الأيمن) أما زلت يا امرأة في جنونك هذا؟ (يدور في الغرفة والسرور يبدو عليه بشكل واضح، وهو يشير إلى الملابس التي يرتديها). ما رأيك؟ هل تعجبك؟ (صوفيا لا تجيب) أقول لك، أحدِّثك أنت، ألا تسمعين؟ (تنظر صوفيا إليه. يُريها بونياتفسكي ملابسه مرة أخرى)، ما رأيك؟ هل تعجبك؟

صوفيا : (تجلس على كرسي، يعبِّىء مسدسه) هل تعلمين إلى أين أنا ذاهب؟

صوفيا : (تجفل عندما ترى المسدس) إلى أين؟

بونياتفسكي : إلى بورغاز.

صوفيا : ولماذا؟

بونياتفسكي : لمقابلة أمين علي الساعاتي، لأحاسبه على الإهانة التي لحقت بي بالأمس، وعلى أحاديثه التي غيَّر بها هليمكوف عليَّ .

صوفيا : وما دخل أمين علي في هذا؟

بونياتفسكي : إني أعرفه جيداً. (يصرُّ على أسنانه) إنه السبب في كل ما يحدث في هذا البيت من مشاكل، إني لن أذهب اليوم إلَّا لكي أقتصَّ منه، لم يقع في يدي أيام الحرب، آه لو كان هذا قد حدث! لكان الآن ميتاً في سجون

سيبيريا[1]. (ناهضاً) لم يقع في يدي في تلك الأيام، ولكنه قد وقع فيها الآن.

صوفيا : (تقفز من مكانها. تقترب من بونياتفسكي صائحة). كفى.. كفى يا بونياتفسكي.. من حقهما أن يعيشا، ولن تستطيع أن تمسَّهما، إذا لمستهما ففكِّر فيما يحدث بعد ذلك، لقد نفد صبري، ولم أعد أحتمل. يكفي أنني عانيت طوال هذه الأعوام. أَفِقْ.. لقد انعدم الضمير منك.

بونياتفسكي : (بخشونة) وما الذي تريدين قوله الآن؟ هه!! إني ذاهب وسأعود بعد أن أبعث به إلى جهنم، وبذلك يكون قد دفع حياته ثمناً لما اقترفت يداه، هل فهمتِ الآن؟

صوفيا : (تتوسل) لا تذهب يا بونياتفسكي.. لا تذهب!!

بونياتفسكي : اسكتي يا امرأة. إني ذاهب (يسير بونياتفسكي حتى وسط الغرفة. صوفيا أمام الباب الأيسر. تنطلق صوفيا فجأة وفي يدها المنشار).

صوفيا : (وهي تهز المنشار وكأنها تهدِّد به) لا، لا يمكن أن تذهب. وإذا أصررت على الذهاب سأقتلك، لقد تحملتُ كل هذا، ولن أعطيك بعد ذلك أي فرصة.

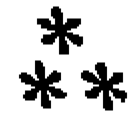
---

(١) سيبيريا: منطقة في روسيا شديدة البرودة، ومكان لنفي المعارضين للسلطة الروسية.

بونياتفسكي : أتنوين قتلي بهذا؟ اتركي هذا من يدك. اتركيه. . (وهو يحاول أخذ المنشار منها) هيا أعطه لي. . أعطنيه. . (يتصارعان) أَوَصَل الأمر بك إلى تهديدي بالمنشار؟ ها!. . . اتركيه. اتركيه (يتغلَّب عليها يأخذه منها) العقيد بونياتفسكي لم يمت بعد. . (يتجه نحو الباب. صوفيا على الأرض. تحتضن قدمي بونياتفسكي لإيقاعه). ابتعدي. . ابتعدي عني (يبدو وكأنه يركل صوفيا. يُسمع بكاء صوفيا بينما تخفت الأضواء. موسيقى، بينما يأخذ الستار في الانسدال. الكشاف المواجه يضيء الستار).

• • •

(نفس ديكور المشهد الثاني. الوقت: بعد الظهر. وفي الخلف ضوء كشاف آتٍ من الأمام، يصب الضوء على هليمكوف الذي يجلس تحت شجرة في الخلف. هليمكوف يخبِّىء رأسه بيديه، مستغرقاً).



هليمكوف : (رافعاً رأسه) إنها لم تأتِ اليوم أيضاً، مع أني في كل وقت من أوقات عودتي من المدرسة أبحث عنها هنا. يا ربي، لقد هدَّني هذا الألم الذي ألمَّ بي، وجه تُركان الباسم لم يعد يبتسم، إنها صارت مثلي تبكي دائماً. آه، ليتها تأتي. تحدِّثني نفسي أن أذهب وأخطفها. تُرى ماذا يكون عليه موقفي إذا فعلتُ ذلك؟ (تدخل تُركان من اليمين، ترتدي ثياباً سوداء. تنظر دوماً إلى الأرض. ينهض هليمكوف على قدميه. لم يفطن بعد إلى مجيء تُركان) حبيبان. . كلاهما عدو للآخر. . كم أن هذا شيء مضحك. . يلتفت إلى الشمال، يلتقي نظره بتُركان. يُدهش. ثم وهو يأخذ في جمع شتات نفسه). . وأخيراً جئت، كنت أعرف أنك ستأتين يا تُركان، ذلك

لأنك تحبّيني. . (بجنون وكأنه يستجدي الحب)تحبّيني يا تُركان، أليس كذلك؟

تُـركـان : (تهز رأسها علامة الرفض) مستحيل. .

هليمكوف : (بسرور) ها أنت تتحدَّثين. (تصمت أصوات الطيور) كل شيء قد سكت. . لم يعد أحد يتحدَّث معي، إني وحيد يا تُركان.

تُـركـان : (يرتعش صوتها) إني أنظر لهؤلاء الذين حولي، أنظر إلى الحشائش الخضراء، والأشجار، والماء الجاري، والشمس. كل هؤلاء يعيبون عليَّ، كلهم يلعنون جنايتي. (تأخذ شكلاً جاداً) وكل هذا بسببك أنت، لقد حدث لي هذا بسببك.

هليمكوف : (وهو يتناول من الأرض ورقة اصفرَّت) أترين هذه يا تُركان؟ (بتأثر) ورقة سقطت صيفاً، وكان يجب أن تكون على غصنها، كان يجب أن تكون في انتظار خريفها، لماذا سقطت؟ لماذا تُركت محرومة من الحياة؟ أو أن طائراً عديم الوفاء قد أسقطها من على غصنها؟ أو أن هذه أيضاً مثل غيرها لا تحب الشمس؟ ألم يكن يُحب لها أن تتموَّج أمام الرياح؟ (يتأثر جيداً) أنا مثل هذه الورقة يا تُركان، قطفوني من غصني، أغبط الناس الآخرين، بل إني أغار من سعادتهم. أريد أن أكون مثلهم.

تُـركـــان : يُمكنك هذا.

هليـمكوف : (فجأة) وكيف؟

تُـركـــان : أن تحب واحدة مثلك.

هليـمكوف : لا.. مستحيـل.. أنا لا أستـطيـع أن أحب غـيرك.. أحببت مـرَّة.. وليس هنـاك أحـد يستـطيــع أن يمـلأ فراغك، لا أريد مجرد التفكير في ملئه، لأني لا أستطيع تعـزية نفسي بـإنشاء بيت خشبـي مكـان قصر هـدمتـه بيدي.

تُـركـــان : حاول أن تُعزّي نفسك.

هليـمكوف : لا يمكنني هـذا، أريـد أن أحقق كـــل شيء لي، معـك أنت.

تُـركـــان : هذا مستحيل.

هليـمكوف : ولم لا؟ (محتـدّاً) يمكن وعـلى أحسن صــورة ممكنـة.. أخطفك وأتزوَّجك بالقوة. (ضاغطاً على أسنانه) آخذك وأنا أجرُّك من شعرك.

تُـركـــان : لا تستطيع هذا.

هليـمكوف : ولم لا أستطيعه؟ بالطبع أستطيعه.

تُـركـــان : (بصوت ممتلىء وفخـور) إنـك لا تستـطيـع حتى مجـرَّد الإقـدام على هـذا، ذلك لأن خـاقان سيـأتي لينقذني،

وستفعـل أنت مثـل الشبـان البلغـار، ستهـرب بمجـرد رؤيتك له.

هليـمكوف : (مقـطب الجبين) خـاقان؟ نعم خـاقان. . (متنهـداً) . . خاقان. . (غاضباً، يمسك بـتركان من ذراعهـا ويضغط عليها) . . هيا سـيري فلم يعد بـإمكان خـاقان إنقـاذك (يضغط على تُركان قليلاً، يأتي في تلك اللحظة صـوت تُـركان من جهـاز مسجَّل، صـوت يعـود إلى أول لقـاء بينهما) .

صـوت تُركـان: حسناً، ما هو اسمك؟ (في الصوت صدًى) .

صـوت هليمكـوف: (وفيه أيضاً صدًى) خاقان. . خاقان. . خاقان. . (يترك هليمكوف، تُركان. يسير نحو اليمين مهموماً مفكِّراً . ثم يلتفت إلى تُركان) . معذرة يا تُركان، سامحيني. ما كـان ينبغي أن أفعل. ولا يمكنني أن أفعل.

تُــركـــان : فليعف الله عنّـا، عن كلينـا. (تـذهب. تجلس أسفـل شجرة) .

هليـمكوف : آمين. . آمين. . . يا تُركان.

هليـمكوف : (يجلس بجانبها) يبدو أنك لن تحبّيني بعد ذلك.

تُــركـــان : ولماذا تسأل؟

هليـمكوف : (يحـاول أن يبتسم) أسـأل فقط، أصحيـح أنـك لن تستطيعي أن تحبّيني؟

تُـركـان : (من مكانها) سأحبك (يبدو صوتها وكأنه قد اضطرب) أنا إنسان، وسأحبك طبعاً. . (وهي تقترب من هليمكوف) بل أحب. . وها أنذا بالفعل أحب (صوتها يضعف) أحب. .

هليمكوف : تحبين من يا تُركان؟

تُـركـان : أحب خاقان. .

هليمكوف : (يريد الإمساك بيد تُركان) إنه أنا. . أنا. . أنا، يا تُركان.

تُـركـان : (تقفز من مكانها) لا. إنك لا تستطيع أن تكونه. إنه. . ذلك الشاب، التام النقاء، الذي يقاسي معي نفس المعاناة ونفس الألم. ويشاركه هذه المعاناة وهذا الألم والداه. لكنه الإنسان الذي لا يضعف ولا ينهزم، ويعرِّض صدره لمواجهة الظلم. (بشدَّة) أما أنت فوَحْشٌ ارتدى ملابس الطهر والنقاء والبراءة. (يقترب هليمكوف منها، فتهزه) وحشٌ. . هيا اغرب عن وجهي. لا بد أن تذهب من هنا. دعني وشأني مع خاقان الذي أعرفه. أما أنت فاذهب. . اذهب. . مهما كنت. (تجلس).

هليمكوف : (متعباً) سأذهب، أما أنت فلم لا تذهبين؟

تُــركـــان : (في حالة شعورية واضحة) إني أنتظره، أكاد أراه يخرج من بين تلك الأشجار وسيأتي. ولكن لم يعد يأتي.

هليـمكوف : (بهدوء) أيأتي؟!

تُــركـــان : نعم.

هليـمكوف : ربما يكون مريضاً. ربمـا نسي حبك وأصبـح يكرهـك. وربما أيضاً يكون قد مات.

تُــركـــان : إنه حي، ويحبُّني كثيراً، ولا يستطيع فعـل شيء بدوني، وأنا لا أستطيع العيش بدونه.

هليـمكوف : أصحيح هذا الذي تعبِّرين عنـه؟ أصحيح أنـك تحبّينه بكل هذا القدر؟

تُــركـــان : بقدر ما تحب أنت تُركان.

هليـمكوف : وكيف عرفتِ؟

تُــركـــان : ضيَّق علـيَّ بعض الشبان البلغـار النصـارى مثلما فعلت أنت قبل قليل.

هليـمكوف : ثم؟

تُــركـــان : ثم، جاء هو، وأنقذني. لا أستطيع أن أنسى عينيه. لقد نظر إلى البلغار نظرة ملؤها الحقد والكراهيـة. ونظر إليَّ نظرة ملؤها الحب. (تنطفىء الأضواء. موسيقى. تضاء الأنـوار. يجلس هليمكوف في مكـانه. تختفي تُـركان.

تنطفىء الأضواء، تجلس تُركان بنفس ملابسها التي كانت ترتديها في أول لقاء بينهما. موسيقى. تخبِّىء تُركان رأسها بيديها. تصمت الموسيقى. يدخل هليمكوف بملابسه التي كان يرتديها في المشهد الذي تمَّ فيه أول لقاء بينهما. يمتلىء المسرح بزقزقة العصافير. هليمكوف يبتسم، تنهض تُركان من مكانها. تمد يديها إلى هليمكوف، يمسكها هليمكوف. كلاهما خيال. يتجوَّلان. يتحدَّثان. لكن صوتهما غير مسموع، يعودان إلى الوراء. يأخذان أوراقاً من غصن شجرة ويبتسمان. تنطفىء الأضواء. موسيقى. توقد الأنوار. كلاهما في مكانه. ملابسهما نفس الملابس التي ارتدياها في الفصل الخامس).

هليمكوف : عمَّ تبحثين هنا؟

تُركان : أنتظرُ أحَدَهم. حسناً. وعمَّ تبحث أنت؟

هليمكوف : وأنا أيضاً أنتظر أحدهم.

تُركان : أتحب كثيراً ذلك الشخص الذي تنتظره؟

هليمكوف : جداً جداً. وأنت؟

تُركان : وأنا أيضاً كنت أحبه كثيراً.

هليمكوف : وهل جاء؟

تُركان : وهل جاء الذي تنتظره؟

هليمكوف : إنه قريب مني قدر قرب نفسي مني. لكنه لا يدري عني شيئاً.

تُركان : أما من أنتظره فقد جاء قبل قليل.

هليمكوف : ثم؟

تُركان : ثم ذهب. وهل ذهب الذي تنتظره؟

هليمكوف : لا، إنه يجلس بجانبي، لكنه لم يلحظ وصولي.

تُركان : وكيف ذلك، ألا حدَّثتني؟

هليمكوف : هذا كل ما في الأمر. (وهو يلتفت إلى تُركان) أحدِّثه ولا يفهم. أحبك، هل فهمت يا تُركان؟

تُركان : مستحيل.. لا تحب عبثاً.. (يمسك تُركان من ذراعها يريد رفعها).

تُركان : دعني (يتركها هليمكوف).

هليمكوف : معنى هذا أني بقيت وحيداً إلى الأبد. ولم أستطع أن أقنعك بنفسي. ولكن لن أستطيع أن أنساك قط. يكفيني الفكر الذي أعطيتنيه. طاب يومك يا تُركان.. طاب يومك (يختفي من الجانب الشمالي).

تُركان : (من خلفه) خاقان.. خاقان.. (يبدو صوتها وكأنها تبكي).. خاقان.. (تنتحب) خاقان.. (تنطفىء الأضواء. موسيقى. تغيير المشهد).

• • •

(منزل بونياتفسكي. نفس الديكور. الوقت قريب من مساء نفس اليوم. المسرح خالٍ في البداية. يُدقّ الباب).

***

شامتروف : (من الخارج) أمي.

صوفيا : (وهي ذاهبة لفتح الباب) إني قادمة(تفتح الباب. إيڤانوف في المقدمة وبعده شامتروف وهليمكوف يدخلون. يدخل إيڤانوف: رجل أنيق الملبس، في حوالي الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره. يبدو اضطرابه من أول لحظة. نظارته بيضاء).

شامتروف : (لإيڤانوف) تفضل يا سيدي من هنا. (يشير إلى مكان، فيجلس إيڤانوف).

إيڤانوف : (لشامتروف) شكراً يا شامتروف.

شامتروف : (وهو يقدم إيڤانوف إلى صوفيا) معلمنا إيڤانوف يا أمي. (ملتفتاً إلى إيڤانوف) أمي، . . يا سيدي.

صوفيا : (وهي تصافح إيڤانوف يداً بيد) مرحباً بك أيها الأستاذ.

إيڤانوف : شكراً لك يا سيدتي.

شامتروف : (إلى صوفيا) أمي، أين سيادة العقيد؟

صوفيا : نزل إلى بورغاز، ألم تقابلوه؟ (هليمكوف يسعل. إيڤانوف يثب من مكانه. صوفيا تنظر إلى إيڤانوف، بدهشة).

هليمكوف : لم نره.

صوفيا : مع أنه كان من الضروري أن يمرَّ عليكم.

إيڤانوف : (إلى صوفيا) إن العقيد يثير فضولي جداً يا سيدتي. ها نحن قد جئنا إليكم بعد أن سرنا أنا والولدان على الطريق المرصوف، وكان الطريق جميلاً جداً. يكفي الإنسان أن يتفرج على ذلك المكان الجميل: آمنه بلقانلري. (يلتفت إلى صوفيا التي تبدو كأنها لم تفهم شيئاً)، هل قلت يا سيدتي إن العقيد قد ذهب إلى بورغاز؟ حسناً. . تُرى ماذا يفعل؟

صوفيا : لا أدري يا سيدي المُعَلِّم.

إيڤانوف : (إلى شامتروف) هذا المكان جميل صيفاً، لكني لا أدري كيف يكون شتاءً؟

شامتروف : (لإيڤانوف) في الصيف، ينتحي سيادة العقيد جانباً وينام، أما في الشتاء، فإنه يقضي طوال اليوم في تكسير

الخشب وقطعه ونشره، لكي يتدفأ به في المساء. إن هذا المكان شديد البرودة شتاءً. ويتسبَّب لنا هذا البرد الشديد في التأخر عن المدرسة. وذات يوم أعلمتنا المَدْرَسة بتقصيرنا هذا، واستدعانا مدير المدرسة وقال لنا (وهو يقلِّد صوته): لماذ تأخرتما؟ وقد أجبته بنفس طريقته الشديدة: إننا لم نتأخر، عربتنا هي التي لم تستطع التخلُّص من الجليد الذي أحاط بها، تعلم سيادتك أن السيارة العسكرية تأخذ وقتاً طويلاً من «يان بولو» حتى تأتي إلى الشارع الذي فيه بيتنا، ويحدث في كثير من المرات أن نترك العربة تذهب لأننا لا نستطيع أن نقف في البرد الشديد وننتظرها.

هليمكوف : (لصوفيا) أمي، هل سأل عني أحد اليوم؟

صوفيا : لا، لم يسأل عنك أحد. أنا فقط التي كنتُ مشغولة عليك. كنت متعباً قليلاً بالأمس. فكيف حالك الآن؟

هليمكوف : أنا بخير الآن، يا أمي. مررتُ على أمين علي الساعاتي اليوم بعد انتهاء الدروس.

صوفيا : (وهي تقطع كلامه) نعم. والدك أيضاً.. (تعمل على تغيير كلامها) قد يراك و...

هليمكوف : لم يتمكَّن من رؤيتي يا أمي، أمين علي سرَّى عني، ثم إنه عمل اليوم ما لم يعمله حتى الآن. (يفكر، سكوت)

سأل عن اسم والدي. وعندما قلتُ لـه بونيـاتفسكي، لاحظتُ أنه تغيَّر ووصل به الأمر أن صوته ارتعش وهو يحدِّثني (تضغط صوفيا ـ بضيق ـ بأسنانها على شفتيها. هليمكوف ينظر إليها بدقة) ماذا هناك يا أمي؟ لماذا أراك متضايقة؟ (يقترب من صوفيـا) أو أنك تبكـين؟ (ملتفتاً إلى الآخَرَيْن) أتلاحظان بكاء أمي؟

إيڤـانـوف : (مصدقاً برأسه) نعم، نعم. لماذا تبكين يا تُرى؟

شـامتروف : (مقترباً من صوفيا) أمي، لا تبكي. (ترفع صوفيا رأسها تخبِّىء دموع عينيها).

صــوفــيــا : لا يا ولدي، لقد تصوَّرتم هذا. (ملتفتة إلى هليمكوف) رؤيتي لك اليوم وأنت على هذا النحو، أثَّر فيَّ كثيراً حتى كاد أن يبكيني.

شـامتروف : (لِمَنْ في الغرفة) ألم أقل لكما إن أمي لا تبكي.

صــوفــيــا : (لإيڤانوف)أيها المدرِّس، إن مشكلة كبيرة ألـمَّت بابني.

إيڤـانـوف : وما المشكلة يا تُرى. مرض؟ أو شيء من هذا؟

هليـمكوف : (لإيڤانوف) مشكلة حدثت وانتهت، ويحسن ألاَّ نتحدَّث عنها إطلاقاً.

إيڤـانـوف : لم أفهم! كيف حدثت وانتهت؟ كان مَرَضاً وانتهى مثلاً؟ لو قلنا حادثـاً أو ما شـابهه، فليس فيـه أيّ أثر لجـرح. (وهو يمسح نظارته) وسأرجوكم شرحها لي.

هليـمكوف : أنـا لا أستطيـع قولهـا. فليحكهـا شـامـتروف. (يبعـد شامتروف وجهه عن إيڤانوف).

شـامتروف : (يتحرك إلى وسط المكان) ومـالي أنا وهـذا؟ كل واحـد يعـرض مـا بـه، وهـذا بـالـطبـع أفضـل. (ملتفتـاً إلى إيڤانوف) أليس كذلك يا سيدي؟

إيڤـانـوف : نعم، هكذا، مضبوط جـداً. لو عـبَّر كل مـريض عن مـرضه، سيسـاعـد في تشخيصـه. مثـال عـلى ذلـك: زوجتي، لقد أخذتها إلى الطبيب أكثر من خمسين مـرة، ولم تستطع الإفصاح جيداً عما بهـا من ألم، كنت في كل مـرة من هذه المـرّات أتولّى أنـا شرح مـا بهـا للطبيب، عنـدها غثيـان، رأسها يـدور، ضغطهـا منخفض وغير هذا. . وبين ذهاب إلى الطبيب والعودة من عنده مرَّت سنـوات ولم يـطـرأ التحسّن أبـداً عـلى زوجتي، (يضـع نـظارته عـلى أنفه وبشكـل غايـة في الجديَّـة)، وأخيـراً أخضعها الطبيب لمجموعة من الاختبارات فتمَّ تشخيص مرضها بسهولة.

شـامتروف : (منطلقاً إلى الأمام) وماذا كان بها؟

إيڤـانـوف : لا شيء يُـذكـر، فـماذا يمكن أن يكـون بهـا. . إنها الأعصاب.

شـامتروف : يعني هذا أن زوجتك مريضة بالأعصاب.

إيڤـانـوف : نعم، بكل أسف. (يتّجه هليمكوف إلى النافذة، يرقب الخارج. إيڤانوف إلى صوفيا) ماذا لـو أُرسل زوجتي إلى هنا لتسـرّي عن نفسها في جو مختلف؟ فقد يكـون هذا أفضل لها. (تهز صوفيا رأسها كـأنها تقول هـذا حسن) ولكن عليكم تحمّل أعصابها. لأنها تقوم أحيـاناً عنـدما يختل رأسها برفع العصا، حتّى عليَّ أنا نفسي. (يضحك شامتروف، يغضب إيڤانوف) ولماذا تضحك؟ مـا الذي يُضحك في هذا؟

شـامتروف : (وهو يأخذ شكلاً جاداً) لا أضحك عـلى مسألـة تتعلّق بك.

إيڤـانـوف : (في نفس حالة الغضب) إذن، فماذا تفعل؟

شـامتروف : لا.. أبداً.. لا شيء.

إيڤـانـوف : (ملتفتاً إلى صوفيا) إذن، على أية حال، فلنستمر نحن في حديثنا، أُرسلها إليكم إذا صبرتـم عليها قليلاً.

صـــوفـــيـــا : بالطبع نصبر، لتأتِ. أهلاً بها ضيفة علينا.

إيڤـانـوف : دمتِ طيبةً يا سيدتي، سأرسلها في أقرب وقت. (يتفرَّج هليمكوف من النافذة. يشير إيڤـانوف إلى شامتروف)، ومـاذا يفعـل هـذا؟ ابن العقيـد ليس طفـلاً، ويعـرف بالضرورة طريق البيت.

شامتروف : (يشير إلى هليمكوف) من؟ تقصد هذا؟ ماذا يفعل؟ ليست مشكلته مع العقيد، ولا شيء من هذا القبيل، إنه يعدُّ النجوم. . . عليه واجب مدرسي في مادة الفلك.

هليمكوف : (ملتفتاً من النافذة) ليس هناك من أحد (يشير إلى صوفيا) أمي!. . لو أتيت لنا بالشاي، سنشربه. مُعَلِّمُنا مدمن على شرب الشاي. لا يستطيع الصبر على عدم تناوله في كل فسحة.

صوفيا : سأعدُّ لكم الشاي فوراً. (يستأذن إيڤانوف) بعد إذن الأستاذ المُعَلِّم.

إيڤانوف : (ببسمة مصطنعة) لا تتعبي نفسك يا سيدتي.

صوفيا : ليس في هذا أي تعب.

هليمكوف : سأساعدك يا أمي في إعداد الشاي. (ملتفتاً إلى إيڤانوف) بعد إذنك يا سيدي. (تخرج صوفيا وهليمكوف).

شامتروف : (مقترباً من إيڤانوف) سيدي، ما رأيك لو قمنا برحلة في هذه العطلة؟

إيڤانوف : فاتحت مدير المدرسة في هذا. أريد أن آخذكم أنتم يا طلّاب السنوات النهائية إلى مدينة صوفيا، بعد الامتحانات، فعلينا أن ننتظر إلى ذلك الوقت، ثم بعدها. . .

شـامتروف : لا شـك أن قيامنا بهـذه الـرحلـة سيكون أمـراً بديعـاً. والحق يُقال أن والدي يكره الرحلات جداً. (يأتي صوت سعال هليمكوف من الخارج، يثبّ إيڤانوف من مكانـه في نفس اللحظة).

إيڤـانـوف : (جالساً) يا أخي، ليته ما سعل، إن هـذا الولد سيفقدني صوابـي.

شـامتروف : لو لم يفعل لكان أفضل، لكنـه فعل كـما ترى. أحيـاناً أخاف أنا أيضاً عندما يسعل فجأة، ولكن ماذا بيدنا أن نفعل؟

إيڤـانـوف : يا لهذا السعال الذي لا ينتهي، إنه دائماً هكـذا، صيفاً وشتـاء. نعم.. ماذا كنـا نقول؟ نقـوم بالـرحلة كلنا، كمَدْرسة. أليس كذلك؟

شـامتروف : نعم، كلنا نقوم بها كمدرسة.

إيڤـانـوف : دعك من مسألة الرحلة هذه، فالأهم الآن أن نتحدَّث عن مشكلة أخيك.

شـامتروف : أستحيـي من قولها..

إيڤـانـوف : ولماذا؟ (غاضباً) تصور أنك في امتحان، وأنا أوجِّه إليك هذا السؤال، ألا تجيب عليه؟ هل يمكن أن تقول لي وقتها أنك تستحيـي؟ أعطيك «صفراً» فوراً وبدون تردد.

شـامتروف : امتحان؟

إيفـانـوف : طبعاً امتحان. لا تقف هكذا، هيا تكلم.. (بفضول) أوووف، إنك أطلت السكوت...

شـامتروف : لكن هذا ليس بامتحان، إنه مسألة أخرى..

إيفـانـوف : ما المسألة؟ لا تُطل يا أخانا..

شـامتروف : (ناهضاً) شيء كالحب.

إيفـانـوف : (من مكانه) شيء كالحب؟ ما معنى هذا؟

شـامتروف : يعني حب.. حب..

إيفـانـوف : (ناهضاً) أو أن أخاك الكبير واقع في الحب؟

شـامتروف : وأي وقعة! إنه يحلم حتى في النهار.

إيفـانـوف : ألا تدخل في الموضوع؟ لماذا تطيل الكلام هكـذا؟ بنت من؟ وما اسمها؟

شـامتروف : اسمها.. تُركان.

إيفـانـوف : (قاطعاً كلامه) ماذا؟!.. أتقول تُركان؟!

شـامتروف : نعم يا سيدي. واسم أبيها مصطفى.

إيفـانـوف : وهل البنت تحبه؟

شـامتروف : نعم، تحبه.

إيفـانـوف : وماذا يعني هذا؟

شـامتروف : يعني تحبه.

إيڤـانـوف : (بامتنان ظاهر) اسمع يا شامتروف، إن هذه لمسألة مهمة جـداً وعظيمـة جداً. (وكـأنه مقتنـع بكلامـه) عظيمـة جداً. . جداً. .

شـامتروف : (وكأنه يكاد يقلده) وأي جانب في هذا عظيم؟

إيڤـانـوف : (مستمـراً في حالـة القيام بـإقناع) انـظر يا شـامتروف، بعلاقاتك بالبنات الأتراك وبحبهن، يمكنـك أن تكسبنا شيئاً كثيراً، فكِّـر ولو مـرة. سيكون نصفـ الأولاد لنـا ونصفهم لهم، وبذلك يندفعون نحو فقد أصولهم التركية المسلمة. وسيهرعون للاختلاط بنا. تزوَّج الأتراك بناتنا البلغاريات وذهبـوا بهن إلى بلادهم. وأصبـح أولادهم أتراكاً مسلمين. لكن من الحقيقة أيضاً في الحروب التي قامت بيننا وبين هؤلاء الأتراك المسلمين أن تزوَّج بعض البلغـار منّا، ببنـات مسلمات، لكن حدث هـذا قسـراً وقهـراً. نعم، حدث هـذا، ولا أقول لم يحـدث، لكن أطفال هؤلاء سرعان ما أصبحوا أتراكاً مسلمين! وهكذا ذهَبَت هباءً، كل المحاولات التي بذلها رجالنا في اجتثاث أصول هؤلاء، كل الأطفال يعودودن أتـراكاً مسلمـين، ولم أرَ أمـة تعود لأصلهـا في ثبـات مثـل هؤلاء الأتـراك المسلمين. . .

شـامتروف : تُرى ما هو في رأيك السبب في عودة هؤلاء الأطفال فيما بعد إلى شخصيتهم وأصلهم؟

إيڤـانـوف : (وقد استغرق تماماً) السبب في غاية البسـاطة: الـذنب دائـماً ذنب، كلما يكـبر الأطفــال يشملهم وَهْمٌ يجعلهم يصيحـون، يزعقـون، فتتولاهـم يقـظة تهـز ثقتهم تجـاه الـرجل الـذي يعرفـون فيه الأب، ثم تتـدخـل الأم في القضية، وهي بالطبع تتحيَّـن الفرصة وتصبر حتى وقت يقـظة الأولاد، وفي تـدخلهـا تكـون المصيبـة قـد حلَّت برجالنا. . (تدخل صوفيا وهليمكوف من الباب، صينية الشاي في يد صوفيا).

هليـمكوف : (لمن في الغرفة) جميل جداً أن تتسامرا.

إيڤـانـوف : ليس كـما تظن. (يسـير إلى الخلف لكي يجلس. يتعقَّبه شامتروف. يجلسان. ملتفتاً إلى شامتروف) يعني هكذا.

شـامتروف : لم يكن والـدي راضياً عن هـذا في البدايـة، لكنه بعـد ذلك، ولا أدري كيـف وَافقَ، فذهب مـع أمِّنا لأهـل الفتاة لطلبها زوجةً لأخي، فقام والد الفتـاة بطرد أبـي من البيت، ولقـد غضب أبـي لذلـك غضبـاً عـظيـماً، وأصبح يردد دائماً، وفي كل وقت: إنني سأحاسبـه على ذلك.

إيڤـانـوف : نعم معه حق.

هليـمكوف : (يمدُّ يده بالشاي) تفضل يا سيدي.

إيڤانوف : (آخذاً الشاي) شكراً يا هليمكوف.. (الجميع يجلسون، مشغولون بشرب الشاي).

هليمكوف : (يتقدَّم إلى وسط المكان) لماذا تأخَّر عقيدنا إلى هذا الوقت؟ (ملتفتاً إلى إيڤانوف) سيدي، إنك لا تشعر بأنك متضايق هنا، أليس كذلك؟

إيڤانوف : وما الداعي؟ كل ما في الأمر أنني قلق على العقيد. (في ذات الوقت، يأتي صوت أعيرة نارية من الخارج. الكل مندهش. الوجوم مسيطر على الجميع. سكوت رهيب...)

هليمكوف : (يصيح وهو ينظر إلى الخارج) ماذا يحدث؟ من الذي يطلق النار؟.. (يجري نحو الباب، يخرج منه. ومن الخارج) أمي!!! لقد ضربوا أبي.. ضربوه بالرصاص... (يسقط كوب الشاي من يد إيڤانوف. الدهشة تسيطر على الجميع. هليمكوف يحمل بونياتفسكي. يجلسه على مقعد) بابا. سأقتل من ضربك.. (يقع الدم على وجه بونياتفسكي).

إيڤانوف : (ببكاء) سيدي العقيد، جئت لزيارتكم.. (صوفيا تعمل على تهدئته).

صوفيا : (لإيڤانوف) جرحه سطحي، ليس غائراً يبدو وكأنه خائف، ثم إنها لأوَّل مرة منذ عدة سنوات يخرج فيها مرتدياً بذلته الرسمية.

إيفانوف : (للجميع) ماذا لو استدعينا طبيباً؟ إلينا بطبيب.

هليمكوف : (خارجاً) أذهبُ أنا سريعاً لأحضره.

إيفانوف : (يتناول مسدس بونياتفسكي وكان المسدس ظاهراً، خائف لآخر مدى من الخوف) يا هليمكوف!.. خذ هذا، تحسباً لأي شيء.. (يدخل هليمكوف).

هليمكوف : ماذا هناك يا سيدي (يأخذ المسدس ويخرج).

صوفيا : (لشامتروف) هات ماءً.. ساعِدْ.. يعطيها شامتروف الماء. في يد صوفيا قطعة قماش. تمسح بها الدماء من على وجه بونياتفسكي. شامتروف يساعدها. يأتي إيفانوف إلى نافذة بجوار المقعد الذي فيه بونياتفسكي، حائراً جداً).

إيفانوف : (لشامتروف) أكان لوالدك أعداء يا شامتروف؟ غريب هذا العالم. قائد عظيم كاد أن يُقتل. لقد فَسدت الدنيا كثيراً. من يا تُرى ذلك الذي يُقدِم على هذا العمل الوحشي؟.. سأتحدث في هذا الأمر في كل فصل أذهب إليه. سأقول لهم اعرفوا قدر العظماء، لا بد من تكريم هؤلاء الذين خدموا الوطن وقدموا إليه أعمالاً عظيمة، أووف.. الطبيب.. أين الطبيب.. أين هو بدَوْره؟ (يُسمع صوت صفارة تحذير من بعيد تطلقها عربة إسعاف. يجري إيفانوف نحو النافذة، يلتفت إلى الخلف) الطبيب قادم.. عربة الإسعاف قادمة.

(تسكت الصفارة. تأخذ عربة الإسعاف في الاقتراب. العربة تقف. يدخل إيڤانوف متأبطاً ذراع بونياتفسكي) هيا يا سيدي العقيد.. (بونياتفسكي ما زال فاقداً وعيه) هيا يا سيدي العقيد.. (يدخل هليمكوف من الباب).

هليمكوف : (للجميع) ساعدونا.. (لإيڤانوف، وهو يحمل بونياتفسكي إلى الخارج) سيدي.. لك أن تبقى هنا إذا أحببت.. (ملتفتاً إلى شامتروف) شامتروف، ابقَ أنت مع والدتنا..

إيڤانوف : (بنفس الاضطراب) وما هذا؟ أنا أيضاً قادم معك. (كلهم يخرجون. صوت تشغيل السيارة، تأخذ في الابتعاد، لم يعد صوتها ــ صوت عربة الإسعاف ــ مسموعاً. تنطفىء الأضواء ثم تُضاء من جديد. تجلس صوفيا على مقعد، وتستغرق في التفكير. يدخل شامتروف من الباب الأيمن. يرتدي بيجامه. يتثاءب يقترب من صوفيا ويجلس بجوارها).

شامتروف : (وهو يعمل على إيقاظها) أمي! أمي! (تثب صوفيا من مكانها).

صوفيا : ألم تنم بعد؟

شامتروف : ولماذا لم تنامي في غرفتك؟ لقد تمددت قليلاً على الأريكة في الغرفة الأخرى.. استغرقت في النوم. سمعت أثناء

نومي دقاً خفيفاً على الزجاج. (صوفيا تتعقّبه بنظرات فيها شك) ثم اقتربت من الزجاج، وفتحت النافذة على حين غرَّة. فإذا بي أرى أن الرياح قد هبَّت، وأن غصناً مهتزاً من شجرة الجوز تضرب ــ بفعل الرياح ــ على النافذة. ثم نظرت إليك، وإذا بك غير موجودة في غرفتك. ثم قلت لنفسي، فلأنظر هنا أيضاً، إيه!!! حسناً.. لماذا لم تنامي؟

صوفيا : استغرقت في النوم قليلاً، فجئت أنت وأيقظتني.

شامتروف : أمي، هل يأتي أخي سريعاً يا تُرى؟

صوفيا : إذا كان أدخله المستشفى، فسيأتي بالتأكيد.

شامتروف : (بشك) من تتصوَّرينه يا أمي قد قام بمحاولة اغتيال أبي؟ ألم يقل لك شيئاً وهو يتوجَّه إلى «بورغاز»؟

صوفيا : (وكأنها تخبِّىء شيئاً) لا يا ولدي. لم يقل شيئاً. وإنما كانت هذه أول مرة ينزل فيها مرتدياً البدلة العسكرية من سبعة عشر عاماً.

شامتروف : ولماذا لم يرتدِ ملابسه الرسمية حتى اليوم؟ (ينهض) ثم إنه يغضب كثيراً كلما ذُكرت أمامه كلمة تركي مسلم. لقد فهمت هذه عنه جيداً في مسألة أخي وارتباطه بالفتاة التركية المسلمة.. على كل حال يا أمي سنعرف يوماً من الذي فعل هذا. (صائحاً) سأحاسبهم. إني ذاهب لرؤية أبي.

صوفيا : أفي هذه الساعة من الليل؟

شامتروف : نعم، ذاهب الآن.

صوفيا : اجلس وانتظر مجيء أخيك الكبير، إنه سيمدُّنا بالأخبار اللازمة.

شامتروف : لا. إني أريد الذهاب في التوّ واللحظة.

صوفيا : قلت لك اجلس وانتظر أخاك الكبير.

شامتروف : «انتظر أخاك الكبير»!! «انتظر أخاك الكبير!!» ما معنى هذا يا أمي؟ ومتى سيأتي أخي الكبير؟..

صوفيا : (وهي تنهض) قلت لك اجلس.. لا لزوم لكل تخوّفك هذا. (يدق الباب. كلاهما يسكت)، هيا، انظر من الطارق! لعله هليمكوف.

شامتروف : بل انظري أنت.

صوفيا : إذن فاجلس كما أنت (يُفتح الباب. يدخل هليمكوف).

شامتروف : (مندفعاً إلى الأمام إلى هليمكوف) أخي! كيف حال والدي؟

صوفيا : (لهليمكوف) أفيه حياة؟ تكلَّم، أما زال حيّاً؟

هليمكوف : (جالساً على مقعد) ليس هناك ما يقلق، إصابته ليست بالغة، وإنَّما سيطر الخوف عليه، بذلوا في المستشفى كل

ما في وسعهم لإفاقته، ولم يستطع أحد حمله على استعادة وعيه لمدة طويلة. خرج الأطباء لفترة خارج الغرفة. وكنت الوحيد الذي أجلس بجواره، كان والدي يهذي، كان يقول: «أمسكوا بها. . نعم قتلتُ زوجها. . » ثم يتعب، ثم يغمى عليه. ثم يفيق بعد فترة. وكنتُ بجواره أيضاً (باكياً)، وعندما كنت أقول له: «عُوفيتَ يا أبي» يأخذ في سَبِّي ويطلب مني الابتعاد عنه، لم أره هكذا منذ أعوام طويلة، غاضباً بكل هذا القدر من الغضب، لم أصدِّق عينيّ (تزيد حدة تأثّره) ثم تحدَّث بعد ذلك مع الأطباء وجعلهم يطردونني خارجاً. سألتُ الأطباء عن موعد خروجه، قالوا لي: قد يخرج غداً. تضايقت كثيراً يا أمي، جلست في حديقة المستشفى وبكيت. . بكيت طويلاً. وكل من رآني على هذا الشكل وفي هذه الساعة من الليل، كان يظن أنني أبكي على ميت، مع أني أبكي نتيجة الضيق الذي أحدثه في نفسي توبيخ أبي لي وضيقه بي. (يلتفت إلى صوفيا، ويبدو، كأنه يتوسَّل إليها)، قولي يا أمي لي، لماذا لا يريدنا هذا الرجل؟ لماذا يكرهنا هكذا؟! لماذا تتنافر أرواحنا معه؟ أرجوكِ يا أمي أن تنقذيني من كل هذه المعاناة.

صوفيا : (بتأثر واضح) إنه عصبي، وهذا هو السبب يا ولدي.

هليمكوف : هل هو عصبي في كل أوقاته يا أمي؟ (واقفاً، متقدماً إلى وسط المكان) مررت عليه لآخر مرة، وأنا قادم إلى هنا، سأل عن مسدسه، قلت له إنه عندي، طَلَبَه، لو رأيتِه وهو يأخذه لتعجبت من طريقتِه، أخذه وكأنه يخطفه بشدة وعنف، ثم هزَّ رأسه وكأنه يقول لي «سأُريك».

شامتروف : أخي، ماذا لو ذهبتُ لرؤيته؟

هليمكوف : لا تذهب، إيّاك أن تذهب، عبثاً ما تفعل.

شامتروف : لماذا؟

هليمكوف : ستجد منه نفس ما فعل معي، فتتضايق مثلي.

شامتروف : ومن قام بمحاولة اغتياله يا أخي.

هليمكوف : إني أشك في شخص بعينه.

شامتروف : من؟

هليمكوف : غداً سأعرف وأتأكد. (ملتفتاً إلى صوفيا)، أمي، إني سأنام، لأني متعب جداً.

صوفيا : نَم يا بني.

شامتروف : (ينهض متثائباً) كنت قطعت نومي، سأنام أنا أيضاً يا أمي.

(يخرج هليمكوف وشامتروف).

صوفيا : (تجثو على ركبتيها منتحبة وهي في المقعد الذي تجلس عليه. تنطفىء الأضواء. كشاف يضيء من الواجهة. صوفيا وهي تقيم رأسها رويداً رويداً) . . . إني كنت أذوب، أنا وولداي، في هذا الألم منذ أعوام وأعوام. هذا الألم قضى علينا. (منتحبة) وقد جاء الوقت المناسب لكي أحدثهما بالحقيقة. سأقول لهما حقيقتهما، وبدون الحقيقة لن يكون للإنسان كيانه. (منتصبة) كفى . . كفى . . ولا بد أن أنهي هذه اللعبة القذرة المقززة. فضلت الموت على هذه الحياة، انتابني هذا التفكير كثيراً، لكني أحسست بحاجة ولديَّ إليَّ، فصمدتُ. صمدت لكي أوقظهما من هذا النومٍ الرهيب الأبدي. (منتحبة صائحة) نعم، أنا، إن متُّ فلن يعلم الولدان حقيقتهما. وسأعلمهما أن لهما كياناً مختلفاً، وبدون هذا، فلن أستطيع الحياة بين هذا القطيع المقزز، السافل، الجبان، فاقد الشخصية. لن أستطيع الحياة إلَّا بأداء رسالتي هذه. (تنتحب) . . وإلَّا فسأموت. . . (تنتحب) سأموت . . (يبلغ نحيبها ذروته).

[ستار]

• • •

الفصل الثالث

المشهد السَّابع

(غرفة عمل سرِّية ملاصقة لدكان الساعاتي أمين علي. على الحائط المواجه، صورة السلطان محمد الفاتح. بجوارها لوحات تاريخية ودولاب كتب ملاصق للحائط الخلفي، وبجواره دولاب زجاجي، في داخله ساعات ولوازمها. على الشمال من الداخل باب له «ترباس». على اليمين باب آخر مثل سابقه، لكنه بدون «ترباس». على الحائط الشمالي سجادة. وفي مكان قريب من الباب الأيمن منضدة واطئة، بجوارها مقاعد قديمة).

(عند افتتاح الستار، يجلس أمين علي في صدر المنضدة، أمامه كتاب. يقرأ. يبدأ جرس الهاتف (= التليفون) في الرنين. ينهض أمين علي الساعاتي بهدوء من مكانه يأخذ السماعة في يده).

***

أمين علي : آلو. تفضل يا سيدي. (لحظة سكوت) أهلا ومرحباً يا يعقوب، أهو أنت يا يعقوب، أهلاً ومرحباً بك. (لحظة

سكوت أيضاً) نعم. أعلم بهذا. كن على حذر. سيخرج غداً. احترس ولا ترتبك أبداً. إنه لا يستطيع الحضور إلى هنا. (سكوت) ذلك لأنه أخذ درسه الأول (سكوت) طبعاً سأقتله. (سكوت) كان لا بد من خروجه قبل يومين، لكن الأطباء قالوا إنه لا يستطيع الخروج إلاّ غداً. (سكوت، وبحماس) آلو، يعقوب! . . نعم، لقد مرَّ عليَّ في المساء. (سكوت) تقول لماذا؟ سأقول لك شيئاً هاماً. (سكوت) نعم، شيئاً هاماً جداً. (سكوت) هيا، مع السلامة. (يضع مرة أخرى خلف الدولاب. يجلس على المنضدة. يُدق الباب دقّاً سريعاً. يتّجه أمين علي بأنظاره نحو الباب) ـ من الطارق؟ وماذا تريد؟

مصطفى : (من الخارج) لست غريباً. اسمي مصطفى القازاني.

أمين علي : (وهو يسير نحو الباب) لحظة، سأفتح لك الباب. (يفتح الباب. يدخل من الجانب الأيسر كل من: مصطفى وجميلة وتُركان. أمين علي يشير إليهم بالجلوس). تفضلوا. . تفضلوا. . (يجلس مصطفى وجميلة وأمين علي. تُركان تقف كما هي).

مصطفى : أأنت أمين علي؟

أمين علي : ولم تسأل؟

مصطفى : إني واقع في مشكلة يا أخانا الكبير.

أمين علي : (في شكّ) وكيف ذلك؟ أمتورِّط أنت في شيء؟

مصطفى : نعم يا أخانا الكبير، يقال إنك تعرف هذه الأمور أكثر من أي أحد آخر. إنه ذلك الرجل الكافر. (يُسمع صوت بائع الصحف في تلك اللحظة من الخارج).

صوت بائع الصحف: أخبار!! أخبار!! . . إعدام الذين حاولوا اغتيال العقيد بونياتفسكي. . أخبار! . . أخبار!! . .

أمين علي : (بغضب، نحو الخارج) هؤلاء السفلة الأوغاد. .

مصطفى : يا أخانا علي. . ما هذا الذي نعانيه؟ . . (يضع أمين علي غطاء رأسه على ركبته وهو يستمع إلى مصطفى. ملابس كل من أمين علي ومصطفى عادية) . . لقد ضربوا الروسي ابن الروسي[1] لكنه لم يمت.

جميلة : (ترتدي ملابس تركية تقليدية. اليشمك، والرداء الأسود. الرداء الأسود هذا يمتد ويطول حتى أخمص قدميها. يسمّي أتراك بلغاريا هذا الرداء باسم «فراجة»، ترتدي تركان نفس نوع الملابس. الرجال هناك يضعون أحياناً حزاماً في وسطهم. كما يمكن أن يرتدوا القمصان التي تخلو من الياقات. ويمكن أن يكون هناك صديري فوق هذا القميص. .) كما أنه رجل لا يُطاق. سيدنا وأخانا الكبير: لقد نزحنا من «قازان» منذ ما يقرب من عشر سنوات، والبلغار هناك يقضّون

(١) يتشاءم الأتراك أحياناً باستخدام كلمة «الروسي» و«الشيوعي».

مضاجعنا، ووصل الأمر بنا أننا لم نكن نستطيع مغادرة منازلنا.

مصطفى : (يقطع كلامها. ينظر أمين علي إلى المتحدث) لقد أغلقوا جوامعنا، لم نعد نستطيع إرسال أولادنا إلى المدارس، ذلك لأنهم يريدون تربية أولادنا، كما يريدونهم. لم يعد القصّابون في قازان يبيعون غير لحم الخنزير، لم أستطع تحمّل كل هذا يا أخانا الكبير علي. بعتُ الحقل والمحراث وجئتُ هنا. هنا أجد راحتي أكثر من هناك. (مشيراً إلى تُركان) هذه بنتي، وأعتبرها إنسان عيني، هل يخطر على البال أن يدعها البلغار في حالها دون أذى؟ لاحظت من تصرفات الفتاة أن هناك شيئاً ما. لكني لم أُعِر هذا اهتماماً، جاء الكثير يطلبون بنتي، وجاء بونياتفسكي أيضاً مثل الآخرين، كنت سمعت اسمه، صحيح أن عمري ليس كبيراً لكني كنت أعرف، كنت أعرف ماذا فعل هذا الرجل بالمسلمين في الحرب العالمية الثانية، وبعدها أيضاً. (غاضباً وبحدّة) أمسكته من ياقته وألقيته خارج المنزل، طردته.

جميلة : (مقاطعة كلامه) سيدي، قدّمت زوجته نفسها لنا على أن اسمها «بِنَازْ» يعني تركية يعني مسلمة وقدّم هو نفسه على أن اسمه «أحمد». وأنا لم أكن أعرف هذا الكافر، أحسست باضطراب في المرأة عندما كان مصطفى

يطردهما. كان يبدو أنها تريد أن تقول شيئاً ما، لكن زوجي لم يعطِ أحداً الفرصة لشيء.

أمين علي : (لجميلة) هل لاحظت اضطراباً في المرأة؟

جميلة : نعم يا سيدي.

أمين علي : (وهو يشير إلى تُركان) هل اسم هذه الفتاة، تُركان؟

مصطفى : (بسرعة) نعم، يا أخانا الكبير. . وكيف عرفت هذا؟

أمين علي : (وهو يتنهَّد) أبداً. . أبداً. . لا شيء. . عرفتُ وكفى.
تُركان (لأمين علي) ولكن يا سيدي. .

أمين علي : (لتركان) لا تضطربي يا بنيَّتي، لا تضطربي.

مصطفى : (بفضول) ولكن يا أخانا الكبير، من أين تعرفنا؟

أمين علي : وكيف عرفتموني أنتم؟. . لا داعي للاضطراب، أما عن مسألة بونياتفسكي، فلا تخشوا شيئاً، سأرسل لكم اليوم مساءً، رجلًا يُدعى يعقوب فاستمعوا جيداً لما سيقوله، ثم تعالوا إليَّ معه. (ينهض مصطفى واقفاً).

مصطفى : حسناً، وماذا سيقول لنا هذا الرجل؟

أمين علي : سيقول مسألة هامة.

مصطفى : حسناً يا أخانا الكبير، والآن وداعاً، هيا بنا، نستودعكم الله. (جميلة وتركان ومصطفى، يتقدمون نحو الباب الأيسر).

أمين علي : (للآخرين) مع السلامة.. (يخرج الآخرون ثم يتقدم أمين علي نحو منضدة) مجموعة من الأحياء، لكن كل واحد منهم يضرب الآخر في إطار من البراءة. تُرى هل يعرف مصطفى من هي المرأة التي طردها من بيته، ومن أين يعرف هذا الرجل الطيب.. قبل كل شيء هناك واقع وهو أن طفلاً انتُزع ثم نشأ بين مجموعة من البلغار، كان صوته يحمل رنين الأمر في أول يوم التقينا فيه، ثم جاء ليعتذر، إنه يختلف تماماً في حركاته وفي تصرفاته عن بقية البلغار، بونياتفسكي بحث عني كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية، بحث عني كثيراً. (الباب مفتوح. أمين علي لا يدري عنه شيئاً أي لا يشعر بوجوده)، لكنه لم يجدني، لو وجدني لكنت الآن ضمن موتانا والمنفيّين منا في سجون سيبيريا. وعندما هدأت الأمور، تركتُ الجبل، ونزلتُ إلى المدينة، فلم أجد شيئاً على حاله، تغيّر كل شيء، استنفدوا قوى كبار الأتراك المسلمين واحداً بعد الآخر؛ وكان إبراهيم أخي ضمن الذين ذهبوا إلى سيبيريا، قهراً ونفياً، وإني أبحث عن زوجته صفية منذ سنوات، لكني لم أتوصل لشيء. (مهموماً، متفكراً) وهذا الذي كان يقف بجانبي، تُرى هل هو حليم؟ لا بد أن أصل إلى سر هذا. نعم، سأكتشف هذا السر، ذات يوم. (يدخل بونياتفسكي. أمين علي

لا يشعر به.. وجه بونياتفكسي مُرَبّط) كان يجب عليّ أولاً أن أصبر، وصبرت.. (يرتبك على صوت بونياتفسكي).

بونياتفسكي : أيها الجاسوس.. تُرى ماذا تُعِدُّ من خطط أخرى؟

أمين علي : (مندهشاً) أأنت؟.. بأي جرأة تقف هكذا أمامي؟.. ألم تتّعظ حتى الآن؟

بونياتفسكي : (بشدَّة) لقد أيقظت الوَلَدَين. وتريد الآن أن تقف مانعاً أمام أملي الذي أسعى لتحقيقه منذ سنوات عديدة، أليس كذلك؟.. ثم تود اغتيالي..

أمين علي : (بنفس وضعه) لكنك كنت ستخرج غداً.

بونياتفسكي : (بخشونة) أخرجُ في أي وقت أشاء (يطلق قهقهة مخيفة). رغم كل ما أنت فيه تصل بك الجرأة إلى محاولة اغتيالي.. لكنك لن تنجح معي، مستحيل أن تصل إلى هدفك هذا، (يسير نحو أمين علي).

أمين علي : (وهو يقوم بأداء إشارات بيده بمعنى ارجع!) قف حيث أنت. لا تقترب مني، هل تظن أنك نقلب هذا المكان إلى ساحة عداء؟ لن تنجح في هذا. (يضرب على صدره) هل تظن أننا سننسى مرارة السنوات الماضية؟.. أبداً أبداً لن ننساها. (يشير بيده إلى نقطة بعيدة، فوق المشاهدين. يحرِّك يده في الهواء) انظر، ما زال دخان

منازلنا التي أحرقتموها ينبعث. ولم تستوِ بالأرض بعد، أنقاض ديارنا التي هدمتموها. (صوت قطار يبدأ في التحرك، يتحرَّك قليلاً ثم صوت صفارته) ما زال يرنُّ في آذاننا ـ حتى الآن ـ ذلك الصراخ الرهيب الذي أطلقه القطار الأحمر عندما اتجه أمس إلى سيبيريا. . . (وفجأة يلتفت إلى بونياتفسكي) والنساء الحوامل اللاتي اغتلن بالسونكي قهراً، والأطفال الذين اهتزت أجسادهم البريئة على حافة الخناجر البيضاء. ومهود الأطفال الصغار التي ركلتموها بأرجلكم إلى الشوارع، كل هؤلاء وهؤلاء أراهم الآن رأي العين، كلهم في مخيلتي وكأن ما حدث قد حدث اليوم. (بونياتفسكي مندهشاً). إن الكلاب أكثر إنصافاً منكم، إن الكلب لا يعض اليد التي امتدَّت إليه بخير، لكنكم تمثِّلون أسوأ من تعفَّنت عقولهم، لقد رفعتم راية التسليم للنجاسة الروحية. . هيا. . اغرب عن وجهي. . هيا اخرج من هنا. إني أطردك. . لماذا تقف؟ اخرج. . اخرج.

بونياتفسكي : (يضحك بمرارة) سأذهب، لكني سأهلكك. (يصيح) ذلك لأنك أيقظت حلياً.

أمين علي : (برجفة سعادة) حليم؟

بونياتفسكي : نعم، حليم، أَوَتُنكر؟

أمين علي : (بسرور، يجري يمنة ويسرة) حليم.. حليم.. آه، لو كنت أعرف من قبل أن هليمكوف هو نفسه حليم وصوفيا هي صفية. لكنت أوديت بك منذ زمن إلى جهنم. لكنت قتلتك. (يجري بونياتفسكي نحو صورة السلطان محمد الفاتح، يريد تحطيمها).

بونياتفسكي : ما هذا الذي يحدث هنا؟.. هؤلاء الذين يسحقوننا..

أمين علي : (يسحب مسدسه. يتوقف كلام بونياتفسكي في المنتصف)، ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟ (غاضباً) إياك والسلطان محمد الفاتح، قد تستطيع أن تقتلني، لكنك لن تستطيع أن تنزله من مكانه. ارجع إلى الوراء، ارفع ذراعيك.. إلى أعلى.. أكثر وأكثر.. (يدا بونياتفسكي في الهواء.. يتراجع نحو الباب. يشير أمين علي بيده اليسرى إلى البعيد، والمسدس في يده اليمنى. في هذه الأثناء تأتي صوت الموسيقى العسكرية العثمانية ـ المَهْتَرْ ـ خفيفة جداً).

ها هم قادمون، فرقة المغيرين الأتراك تجاهد في أوروبا، تتقدَّم الصفوف إلى الأمام، الخيول تصهل، صيحات الله أكبر تهزُّ المكان هزّاً. (يأخذ بونياتفسكي في القيام ببطء) أتهرب.. وأيضاً مثل الكلاب؟.. تترك بيتك ودارك لتهرب.. أقتلك لأقتصَّ من حقد السنين، لكن هناك من ينتظر قتلك أكثر مما أنتظر، هناك من يخفي

حقده عليك. لماذا تقف؟ اخرج! (يَدَا بونياتفسكي في الهواء. أمين علي، في فورة انفعال). حليم.. أيها الشاب البريء، لقد فهمتُ الآن كل شيء جيداً، زالت الشكوك عني، نعم، الآن أستطيع أن أدرك جيداً مدى المرارة التي قاسيتها أيتها المسكينة صفية، كم كنت أودُّ أن يرى إبراهيم هذه اللحظة السعيدة، لعلَّه فكَّر في هذه اللحظة في الزنزانة التي أزهقوا فيها روحه، عاش دوماً هذه اللحظة... (ما زال الباب مفتوحاً. يجلس أمين علي على المائدة. يبدأ في التفكير شيء غريب، يبدو كأنه يرتعد من الفرحة. يظهر يعقوب على الباب، أمين علي، لا يدري عنه شيئاً، يتقدَّم يعقوب إليه بخطوات وئيدة).

يعقوب : السلام عليكم أيها العم أمين علي. (يعقوب في حوالي الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره. ضخم الجسم. يربط حزاماً على وسطه. وعلى رأسه غطاء رأس محلي. مظهره يوحي بالعصبية).

أمين علي : وعليكم السلام يا يعقوب، تفضل، تعال هنا واجلس. (يجلس يعقوب).

يعقوب : أراك مضطرباً كثيراً أيها العم أمين علي. خيراً هل هناك ما يضايقك؟

أمين علي : لا يا يعقوب، أسمعتَ؟

يـعـقـوب : عن ماذا؟

أمين علي : بونياتفسكي خرج من المستشفى.

يـعـقـوب : (فجأة) وكيف هذا؟ قالوا سيخرج غداً.

أمين علي : لا أدري، لكنه خرج.

يـعـقـوب : هل جاء عندكم؟

أمين علي : نعم، جاء وذهب.

يـعـقـوب : (بخشونة) ولماذا لم تقتله يا عم علي. (يضرب بيده عـلى المنضدة).

أمين علي : لاتضطرب يا ابني، مسألة قتله مسألة وقت فقط، انظر ماذا سأقول لك.

يـعـقـوب : وماذا ستقول؟

أمين علي : (بسرور بالغ) أتذكر الشاب الذي كـان يأتي بـين الحين والحين هنا؟

يـعـقـوب : (قاطعاً كلامه) هذا الفتى الأشقر؟

أمين علي : نعم يا يعقوب، هذا الشاب نفسه ابن أخينا إبراهيم.

يـعـقـوب : ابن إبراهيم زوج صفية؟

أمين علي : نعم. هو نفسه. قال لنا هـذا بونيـاتفسكي عندمـا كان هنا. اتهمني بأني أفسدت عليه وَلَدَيْه، وأنا بالفعل كنت أحس بأن الولد إنما هو ابن أختنا صفيـة، لكنني لم أكن أستطيع التعبير عن هذا، يـا يعقوب (يتنهّـد) على كـل حال فهو منّا، إنه قريبنا، أليس كذلك يا يعقوب؟ كان واضحاً من كل أطواره أنه منا.

يـعـقـوب : نعم، كان قريباً جداً منّا، كان دوماً يستمع إليك، كان يجد لذة في الاستماع إليك، أحياناً كان الشعور بالحماس يجرفه، أتعرف يا عم أمـين علي، إنـك أثّرت عـلى هذا الفتى تأثيراً مدهشاً.

أمين علي : كانت عيناه تترقرقان بالدموع عندما كنت أقول له «إننـا نعتبرك منّا». كانت أسطورة تُركان خاتون بالذات تؤثـر في نفسه كثيراً. كان يطلب مني في كل مرة أن يأتي فيها أن أسمعه إياهـا، ثُمَّ وذات يوم قـال لي إنه أحب تُـركان جداً. . . قد يكـون بونيـاتفسكي قد ذهب إلى البيت، ربما، وهذا احتـمال وإن كنت لا أظن؛ ذلك لأنـه ليس شجاعاً، والفتى سيأتي هنا في الغد، ولا بد أن نقول له حقيقته. وبالطبع لن يكون هذا أمراً سهلاً، والواقع أنه يبحث عني. لن أفتح الدكان لعدة أيام، ذلك لأن ذهني كله مشغول بهذه المسألة.

يـعـقـوب : (بغيظ) سأذهب لأحكي للوَلَدَين حقيقتهما.

أمين علي : لا، لا يا يعقوب. احذر من الذهاب إلى هناك. إن الوَلَدين لا يدريان عن هذه المسألة شيئاً، فإذا فاجأتهما به قد يقتلانك.

يعقوب : إن القلق أصابني بعد حديثك معي في الهاتف. لأذهب الآن فعندي عمل، وأنا لا أطيق أن أكون عاطلاً.

أمين علي : (مبتسماً) ألا لا تعجَّلت يا ولدي، إني بكل تأكيد سأكلِّفك بعمل، ستذهب اليوم إلى حارة البلغار، ستجد هناك منزلاً مدهوناً باللون الأصفر، ادخله، قل لأصحابه إنني أرسلتك، ثم قل هناك ما تعرفه عن حليم.

يعقوب : الحارة التي على البحر؟

أمين علي : نعم. نعم. (ينهض يعقوب)

يعقوب : هيا، أستودعك الله.

أمين علي : مع السلامة، ولا تنسَ ما قُلته لك.

يعقوب : نعم. (يخرج يعقوب، يجلس أمين علي، على كرسي المنضدة الرئيسي. يفكِّر قليلاً. تنطفىء الأضواء رويداً رويداً. ينغلق الستار في حوالي أربعين أو خمس وأربعين ثانية، ثم يعود ليفتح. أمين علي، نائم على طرف المنضدة. يُدق الباب بشكل سريع. أمين علي

لا يسمع. يُدقُّ الباب مرة أخرى. أمين علي يثب من نومه).

أمين علي : (ناهضاً) آه.. من؟.. آه.. منذ المساء وأنا قابع هنا ولا أدري شيئاً. (إلى الخارج) إني قادم.. إني قادم. (يفتح الباب يرى حلمياً، فتعقد الدهشة من السرور المفاجىء لسانه قليلاً، ثم يقول): أووه.. أأنت يا ولدي، أهلاً بك. (وجه هليمكوف مقطَّب الجبين. يأخذ أمين علي، شكل الجديَّة).

هليمكوف : (وهو ممسك بياقة أمين علي) أأنت الذي كنت تُريد قتل أبي؟ لكنك فشلت، أما أنا فلن أخرج من هنا قبل أن أرديك قتيلاً.

أمين علي : (بحيرة شديدة) ولكن استمع إليَّ لحظة يا ولدي.

هليمكوف : أأستمع إلى قاتل أبي؟

أمين علي : لستُ قاتلاً، بل إنهم هم القتلة.

هليمكوف : ومن هم هؤلاء؟

أمين علي : (صائحاً) البلغار.

هليمكوف : (وهو يدفع أمين علي) اخرس! تفعل كل هذا ثم تحقِّر شعبي أيضاً؟

أمين علي : لا تعتبر نفسك منهم يا ولدي. (هليمكوف يدفع أمين علي. أمين علي يقع أرضاً).

هليمكوف : ماذا تقول الآن؟ تحقِّر شعبي لكي تنقذ نفسك مني؟

أمين علي : (ناهضاً) لا يا ولدي، أنت لست من هذا الشعب بل منّا نحن المسلمين الأتراك.. أنت منّا، ولنا.

هليمكوف : لا تتحدَّث في هذا، فإني لا أسمعك.

أمين علي : (بحنوٍّ) انظر إليَّ يا ولدي، سأسألك بعض أسئلة، أرأيت في الرجل الذي تعرف أنه والدك رحمةً أو شفقةً ما في سلوكه تجاهك طول عمرك؟ أرأيت وجه أمك مبتهجاً قط؟ ألاحظت أنه يكثر من تقديم لحم الخنزير لكم؟ أتذكر سلوك الرجل الذي تعرف أنه والدك عندما طلبت التزوُّج من تُركان؟ هل شعرت ولو مرة واحدة طول عمرك أن أمك عانقته برغبة أو بإخلاص؟ أفكَّرت قط في السبب الذي جعلك تقول عن نفسك أنك «خاقان» وليس هليمكوف؟! أجب عن كل هذا. وبعد ذلك لك أن تقتلني إن أردتَ. (هليمكوف منهك متعب).

هليمكوف : (صائحاً) كفى.. كفى.. لا تُطل أكثر من هذا.. (يمد أمين علي مسدسه إلى هليمكوف).

أمين علي : خذه، خذه، ولا تتردد.

هليمكوف : (وهو يأخذ المسدس) ولماذا تعطيني مسدسك؟ إني أستطيع جيداً أن أقتلك. . (يدا هليمكوف ترتعشان).

أمين علي : تستطيع قتلي. وإذا قتلتني ستعيش أنت بقية عمرك في سبات أبدي طويل. (يسدد هليمكوف المسدس نحو أمين علي، عينا أمين علي مفتوحتان إلى آخر درجة من الخوف).

هليمكوف : الواقع أنني في سبات أبدي طويل، ولا أريد أن أفيق منه. (يطلق النار فيصيب كتفي أمين علي).

أمين علي : (ماسكاً بكتفه المصاب) آه. . ولكن يا حليم.

هليمكوف : (وفيه ندم) ومن هذا الذي تناديه بِحَليم؟ أما زلت تهذي حتى الآن؟

أمين علي : آهٍ. . آه. إنه أنت يا بني. أنت. (يقوم هليمكوف بإجلاسه على مقعد).

هليمكوف : أنا؟!!

أمين علي : أنت يا بني. . نعم. . أ. . أ. . نت. أما أنا فقد وضعت نفسي لخدمة المسلمين الأتراك في هذه البلاد، بلغاريا، أبوك كان كذلك. . وكذلك كان عمك. لكنهما غير موجودَيْن الآن. . الموجود الآن: أنا. . وأنت. . وأمك. . (يتلوّى) آه. . لقد انتظرت هذه اللحظة منذ سنوات. . نعم. منذ سنوات. . منذ

سنوات وأنا أبحث عنك، حتى ذلك اليوم الذي زاركم فيـه المدرِّس إيڤـانوف. (يقـوم هليمكوف بـربط جرح أمين علي بمنديله).

هليـمكوف : (متوسلًا) أتوسَّل إليك.. تكلَّم بوضوح.. ماذا تُريد؟ لقد أحببتك حقاً، وكوني بلغـارياً لا يمنـع أن نتصادق، لقـد حَنَوْتَ عـليَّ وصادقتني في أسـوأ أيام حيـاتي، وإني أحب منك أن توضِّح لي المسألة أكثر.

أمين علي : (هادئاً) إذا وعدتني أن تسمعني، فسأحدِّثك يا ولدي. حسناً، ألم تفكِّر قط فيما سمعته مني؟

هليـمكوف : في ماذا بالضبط؟

أمين علي : منذ مجيئك هنا. منذ أول مرة، ووجدت فيك شبهاً كبيراً بأبيك، ثم حدَّثتك على أنك مسلم تركي. إن لنا يا حليم تاريخاً عظيماً يحق لنا أن نفخر به، وكنت موقناً بأنه سيأتي يـوم وأحدِّثك فيه عن هذه الحقيقة.

هليـمكوف : (والندم مسيطر عليه) أي حقيقة؟ أسرع بـالدخـول في المـوضوع، هيـا، إني لم أجد جـواباً عـلى أي سؤال من الأسئلة التي سألتنيها منذ قليل.

أمين علي : في الحرب العالمية الماضيـة، عاشت منـطقتنا هـذه تحت الاحتلال الشيوعي الروسي وظلمه، احتلَّ الجيش الأحمر هذه المنطقة في ٩ سبتمبر ١٩٤٤م، أعدم الروس كل من

قاومهم، ومن لم يمت بسلاحهم مات تعذيباً، والموت في حساباتنا يا حليم ليس صعباً، وعندنا ما هو أمرٌ من الموت.. النفي.. الذهاب إلى المنفى.. ثم أين هذا المنفى، أتعرف؟.. سيبيريا.. سيبيريا يا ولدي.. (يتلوّى ألماً) وها هو ذا والدك.. آه.. وكيف أحدِّثك؟ والدك واحد من ضحايا سيبيريا هذه.. (هليمكوف في حالة ذهول) عمك حسن وزوجة عمك «پاكيزة» راحا في عداد القتلى، وقعدت صفية وحيدة مع طفليها، ومن هما: واحد منهما أنت يا حليم والآخر شامل.

هليمكوف : (مقطَّب الجبين وكأنه يفكِّر في شيء سيِّئ جداً) صفية؟ وشامل؟ من هما؟

أمين علي : أمك وابن عمك.

هليمكوف : حسناً، ومن فعل كل هذا الذي تحكي عنه؟

أمين علي : فعله ذلك الملعون الذي يدَّعون أنه أبوك، إن عقولهم قد اهترأت يا ولدي، إنهم يريدون الزجّ بهذا المخلوق المقزِّز في عقول كل الناس، ومنذ أعوام طوال وهم يصوِّرون لك الأتراك المسلمين على أنهم أعداء مع أنهم إخوانك، وصوَّروا لك أعداءك في صورة الأصدقاء. ولقد نفَّروك ـ يا ولدي ـ من مسائل كان الأجدر بك أن تفخر بها، ولعلَّك تفهم الآن أكثر من أي وقت مضى معاناة البقاء

بعيداً عن نفسك، أليس كذلك يا ولدي؟ بونياتفسكي جاء هنا وقال لي: «لقد أيقظت حلماً لكني لن أتركه لك».

هليمكوف : لقد كان خروجه مقرراً، اليوم.

أمين علي : لا علم لي بهذا.

هليمكوف : حسناً، ما دام العداء بينكما كبيراً إلى هذا القدر، فلماذا لم تقتله؟

أمين علي : كنتُ أستطيع قتله. لكني انتظرت أن تقتله أنت، بعد أن عشت هذه المرارة سنوات عديدة، أردتُ أن تقتله أنت، حتى ترى أمك ــ على الأقل ــ هذه اللحظة السعيدة. لو كنتُ قتلته، لشنقوني وانتهى الأمر على ذلك، وعلى هذا كنتَ ستعيش أنت نافراً من مسألةٍ كان لك أن تفخر بها. (يتلوّى ألماً) أتحب دليلاً آخر على ذلك؟ (ينبش أمين علي في درج المنضدة. هليمكوف يتعقّبه جيداً. هليمكوف في ذهول. يفقد توازنه الذهني تماماً. يبدو وكأنه على وشك الجنون. موسيقى تشبه رعد السماء. تنطفىء الأضواء. كشّاف مواجه مُسلَّط على هليمكوف. ما زال أمين علي ينبش في درج المنضدة.. كلٌ في عالمه).

صـوت : آمِنْ.. آمِنْ واستمـع جيـداً.. ذلـك لأن الـذين لا يؤمنون، محكوم عليهم بالسقوط والانهيار.. سِرْ خُذْ حقك.. سِرْ.. بالله عليك سِرْ.. حتى تكون جديراً باسم «الغالب».. سِرْ.. سِرْ.. سِرْ.

هليمكوف : (وهو على حاله، صائحاً) لا، إنك تكذب، هذا كذب.. كلكم تتحاملون عليَّ، إنكم لا تفكّرون في شيء غير سحقي. (يجري يمنة ويسرة، تنتابه حالة عصبية. يأخذ في الانهيار ببطء. ساقاه ترتعشان. ينهار حيث هو).

أمين علي : (وأوراق في يده. يجري تاركاً المنضدة) ابني حليم، ماذا حدث لك؟ أأغمي عليك؟ أي واحد في مكانك لا بد وأن يفقد وعيه، لقد امتلأت روحك بالقدر الذي لا تستطيع تحمّله. لأذهب وأحضر لك ماءً حتى تفيق.. (يمسك بذراعه هو، المصاب، ويخرج من الباب الأيمن. الكشافات تركّز على هليمكوف. تقلّ الأضواء. يتغيّر لونها مرة أخرى. تقلّ مرة أخرى. تعود فتغيّر ألوانها. يقيم هليمكوف رأسه من على الأرض. ينظر حوله وهو في دهشة. يستند على ركبتيه. يبدو وكأنه يعيش الماضي).

أصـوات : (نساء ورجال) اتركونا، اتركونا..

أصوات نساء: اتركوا رجالنا. اتركونا أيها الجبناء.. أيها الأوغاد.. أيها السفلة.

أصوات رجال: أولادي!!.. ابني.. (صوت ضربات السياط) آه.. ابني!!.. (صوت ضربات السياط).. آه.. آه..

صوت بونياتفسكي: قيِّدوا أزواجهم.. (قهقهة رهيبة) اربطوهم.. (نفس الهذيان الذي كان منه في المستشفى) كم أنت جميلة جداً هكذا.. اعدموهم كلهم رمياً بالرصاص.. كلهم.. هيا!!..

أصوات : (رجال ونساء) اتركونا. اتركونا. (صوت ضربات السياط. يمسك هليمكوف برأسه. يعاني الاضطراب).

هليمكوف : (ينهض ولا يدري عما يفعله) هؤلاء الكذّابون، لا أريد أن أثق بأحد، وحتى ولو وثقتُ بأحد فما الجدوى من هذه الثقة؟.. إن أجمل المشاعر التي تنبت في روحي تذوب وتنتهي في بوتقة انعدام الضمير، لم أعد أستطيع الحياة. (يبدو وكأنه أفاق فجأة) أمين علي.. أين أنت.. أأنت أيضاً تتركني وتهرب؟.. لا أثق بك أنت أيضاً إذن. وسيأتي يوم أحاسبكم فيه جميعاً.. واحداً.. واحداً.. (وهو يخرج مسرعاً) سأحاسبكم.. (يدخل أمين علي ويلقي نظرة على جوانب المكان).

أمين علي : أين أنت؟ أين أنت يا ولدي حليم؟ أين ذهبت؟ لقد هرب مني. (يضع الوعاء الذي في يده، على الأرض) لا بد من اللحاق به. . لا بد من أن أمسك به. . (يجري نحو الباب. يدخل بونياتفسكي في هذه الأثناء. بجواره جنديان. أمين علي يتوجَّه بالحديث إلى بونياتفسكي) أأنت مرة أخرى؟! هيا اغرب عن وجهي!. .

بونياتفسكي : (باستهزاء) نعم، أنا، مرة أخرى. ما هذا؟ وإلى أين هكذا؟ أوَتدبِّرون خطة أخرى؟

أمين علي : ارجعوا. . ارجعوا. . (يُطلق بونياتفسكي النار. يضع أمين علي يده على مكان إصابته في بطنه) اغربوا عن وجهي. . (لبونياتفسكي) ها هو حليم قد عاد إلينا! أموت قرير العين. (يواصل بونياتفسكي إطلاق النار) آه. . آ. . آ. . . (ينهار وهو يمسك ببطنه وصدره).

بونياتفسكي : ها هو حليم قد عاد إلينا!!!. . حليم. . هه. . (يطلق الرصاص علي، أمين علي، مرة أخرى، وهو راقد على الأرض. أمين علي يتلوّى مرة أخرى، ثم يسقط جثة هامدة بلا حراك) رُدَّ إليكم حليم!!!. . هِهْ. . (لأحد الجنديين): خذ هذا الكلب واعبر الممر، والقِه في المخزن حتى تأكله الفئران. . هيا بسرعة. . (يسحب

الجنـدي أمـين عـلي، ويخرجـه من البـاب الأيمن.
(بـونيـاتفسكي للجنـدي الآخـر): أَحضروا الآخـرين أيضاً.

الجنـدي : تمام يا سيادة العقيد.. (يخرج)

بونياتفسكي : (في موقف مخيف) إنَّ النصر لي.. (يجلس على رأس المنضدة. يمزق الأوراق التي نسيها أمين علي. يدخل الجندي الذي خرج من قبل. يقول له بونياتفسكي) أسرع!

الجنـدي : أمرك يا سيادة العقيد.. (يخرج. يدخل الجنديان ومعهما مصطفى وجميلة ويعقوب وتُركان، والجنديان يضربانهم بمؤخِّرتَيْ بندقيتهما).

بونياتفسكي : (إليهم) ها ها ها.. (لمصطفى) أتذكر يا مصطفى بك اليوم الذي أمسكتني فيه من ياقتي وطردتني من بيتك؟ (بشدة) تذكّرت ولا شك، أليس كذلك؟

مـصـطـفى : (ينـدفـع إلى الأمـام) شيـوعي ابن شيـوعي. ليس في صالحك ما تفعله الآن. تباً لك، وا أسفاً عليك (جندي يدفعه بالبندقية إلى الخلف).

بونياتفسكي : (يسير باستهزاء) ليس هناك داعٍ لصياحك وصراخك، ذلك لأنكم لا محالة ستقتلون.

يـعـقـوب : (بخشونه) أين أمين علي، أين أمين علي؟!

بونياتفسكي : سأبعث بكم إليه حالاً.

يعقوب : إنك لكلب! . . (يقوم جندي بضرب يعقوب بأسفل بندقيته).

بونياتفسكي : (للجنديين): خُذَا هؤلاء إلى حيث يرقد أمين علي، إني التقيت بصديقي اليوزباشي نيقولا، ووعد أن يتولّى هو نفسه مسألة هؤلاء. (بشدَّة، وصائحاً) فليعدموهم كلهم رمياً بالرصاص. (يبدأ الجنديان في إخراج الموجودين. وبونياتفسكي يشير إلى تُركان). قفي. دعوا هذه لي. (يقوم جندي بحجز تُركان).

تُركان : لا تبعدوني عن أمي وأبي. . (نحو الباب) أمي حبيبتي. . ووالدي. . (صائحة) أمي!!! (تخترق جميلة الجنديين وتمسك تُركان من يديها، تريد أن تأخذها معها).

جميلة : اتركوا ابنتي. . لا تبعدوا ابنتي عني. . تعالي يا بنيَّتي. . (جندي يضرب جميلة) ابنتي. . (الجنديان يخرجان جميلة بالقوة إلى الخارج. جميلة وهي تبكي) اتركوا ابنتي. . ابنتي. . تُركان يا حبيبتي. . (يخرجون. تنتحب تُركان عند أول الباب).

بونياتفسكي : (إلى تُركان) قفي. . لا تضطربي هكذا يا حلوتي. .

تُركان : قاتل!! (تبصق على وجه بونياتفسكي).

بونياتفسكي : (وهو يضع يده مكان البصقة ويقول للجندي) خذها خذ هذه الداعرة. . خذها إلى طاحونة ديمتروف القديمة، وانتظرني هناك. . (يدفع الجندي تُركان خارجاً. . يسير بونياتفسكي وهو في حالة نشوة كبيرة) سأنتصر. إن النصر لي. سأحقق معها حُلمي الذي لم أستطع تحقيقه مع صفيَّة. (يخرج من الباب الأيمن. المسرح يخلو مدة لحظة واحدة. من الباب يدخل كل من: صوفيا وشامتروف وجندي آخر). (تنظر صوفيا إلى صورة السلطان محمد الفاتح أول ما تنظر. مستغرقة جداً. ترتعش، تقضم أظافرها).

جندي : (لصوفيا) اجلسي هنا يا سيدتي. وسأذهب لكي أُخبر المُمَرِّضين.

صوفيا : لكن الصورة التي على الحائط.

الجندي : (قاطعاً كلامها) الطبيب المُعالج للعقيد، مسلم تركي، لذلك فالأمر كما ترين يا سيدتي.

شامتروف : ألا يوجد طبيب غيره، لماذا جئتم به هنا؟

الجندي : ألم أقل إن طبيب العقيد مسلم تركي؟ وكما قلتُ في البيت، إن العقيد مريض مرضاً شديداً. ويكون على وشك الموت. نعم، كدتُ أنسى شيئاً، لقد أرسلني اليوزباشي نقولا وإنه يقول لكما إن العقيد يريد أن يراكما

قبل موته (لصوفيا)، تُرى أين الولد الكبير يعني أين نجدُه؟

صوفيا : (بشكّ) لا أدري. . حسناً. يقال إن العقيد سيخرج اليوم. ماذا نقول له؟

الجندي : ألم أقل إنَّ طبيب العقيد مسلم تركي. إن هذه خطة. هكذا يُعلن للناس، وإلاَّ فإن الناس هنا، وأغلبهم بلغار، يمكن أن يتمرَّدوا بل ويمكن أيضاً أن يقتلوا كل المسلمين الأتراك في المنطقة. ومن أجل خاطر الطبيب المسلم التركي فقط، يحدث كل هذا. هل صدقتِ الآن يا سيدتي؟

شامتروف : (للجندي) ولماذا أذعتم هذا؟ آه لو كنا قتلناهم جميعاً. . .

صوفيا : (لشامتروف) صمتاً. . لا تعلي صوتك.

الجندي : عليَّ أن أصعد إلى أعلى وأخبره. اجلسا أنتما هنا. (يخرج الجندي من الباب الأيمن. صوفيا تنظر إلى صورة السلطان محمد الفاتح. تأتي أصوات أقدام من الخارج. صوفيا في آخر درجات التوتر. عيناها تتعلقان بالأبواب).

شامتروف : أمي، لماذا يبدو عليك التوتر؟ (تبدو صوفيا وكأنها تريد أن تقول شيئاً لشامتروف. تزداد صوت الأقدام كثيراً). ماذا لو أصعدونا إلى جانب والدي فوراً، لقد اشتقت

إليه، آه.. يا عزيزي والدي، آه لو أصعد لآخذ مكاني بجوارك، وأقبِّلك بكل حرارة.

الجندي : (وهو يدخل) ستصعدون الآن. (يخرج من الباب الأيسر وبندقيته في يده).

شامتروف : (يتّجه نحو الباب الأيمن) أمي، أنا صاعد إلى أبي. (يدخل بونياتفسكي في نفس هذه اللحظة).

بونياتفسكي : (لشامتروف) نعم، بالطبع، ستذهب إلى أبيك.. (يوجه مسدسه إلى شامتروف. يجري شامتروف نحوه).

شامتروف : بابا.. لا بأس عليك.. (يطلق بونياتفسكي النار عليه. يتعلّق به شامتروف من ياقته) بابا.. أنا.. أنا.. (ينهار على الأرض. بونياتفسكي يوقعه أرضاً بركلة من قدمه فيسرع في السقوط بلا حراك. تتجمّد صوفيا هلعاً. تستجمع نفسها. وتتناول ساعة من على المائدة).

صوفيا : (تريد إلقاء الساعة على بونياتفسكي) اقتلوه، اقتلوا هذا القاتل.. ابني.. ابني.. شامل.. حبيبي.. (بونياتفسكي يطلق النار على صوفيا.. صوفيا تتلوّى) آه.. يا إلهي.. (تنهار على الأرض. يبدو بونياتفسكي وقد توحش، يفقد شعوره ويصبح كالمجنون).

بونياتفسكي : (عيناه مفتوحتان على وسعهما) قتلتها.. هوهوهو (ترتعش يداه.. آه.. هاها.. قتلتها.. قتلتها.. ترتعش) قتلتها!!!..

الجـنـدي : (ذلــك الـذي أحضر منــذ قليـل كــلًّا من صــوفيــا وشـامتروف. . من الخـارج) سـ سـ سـ يادة العقيـد. . (يـدخل من البـاب الأيسر. وهو ينهـار أرضـاً) الـ . . ولـ . . . د . . الـكـبـيـ يـ يـ ر . . و . . . صـ . . لـ . . (يفقد الحركة. يهم بونيـاتفسكي بأخـذ المسدس الـذي تركه أرضاً. يدخل هليمكوف، يركل المسدس بقدمه، فيمنع بونياتفسكي من أخذه.

بونياتفسكي : (في دهشة) معنى هذا أنك جئت. سأدفع بك أنت أيضاً إلى الجحيم (هليمكـوف يمسك بـالمسدس. يـوجِّهه إلى بونياتفكسي وهو يهدِّده).

هليـمكوف : (يرى صوفيا وشامـتروف على الأرض. وبجنـون هائـل يقول): قف. . إني أريد أن أخنقك بيديّ. . . (صوفيا تتحرَّك حركة بطيئة على الأرض. يجثـو هليمكوف عـلى ركبتيـه بجوارهـا) أمي . . لقـد جئت متـأخـراً، أليس كذلك يـا أمي؟ (يبدأ بـونياتفكسي في الضغط عـلى فم هليمكــوف. هليمكــوف يقــع إلى الــوراء. يضغط بـونياتفسكي ويشتـد في ضغطه. يستجمـع هليمكـوف نفســه ويـعتــدل رويــداً رويــداً. يـضغط عــلى فــم بونياتفسكي. يبـدأ بونيـاتفسكي في الانهيار). . . إنـك أبعــدتني عن نفسي سنوات طــوالاً. صنعت مني آلـة لتستخـدمهـا في غــايـة دنيئــة. قتلت أمي بغـير حق. لم تسعـدها قط. . وإني لقـاتلك. . (يجثو بـونيـاتفسكي

ببطء ينهار أرضاً. يشدِّد هليمكوف قبضته على فمه. يجثو هليمكوف على ركبتيه. يدا بونياتفسكي آخذتان في التراخي) إنك تموت.. تموت.. (ينهار بونياتفسكي على الأرض فاقد الروح. يأخذ هليمكوف في التنفس بعمق.. ثم، وفجأة يجري نحو صوفيا. يصنع من ركبته مسنداً لرأسها ويجلس. عزف الناي. هليمكوف يبكي)، أمي.. أمي حبيبتي.. بحثت عنك كثيراً لكني لم أجدك يا أمي. دائماً كنت سنداً لنا وأنا في حضنك الدافىء، عشت عمري كله بعيداً عنك.

صوفيا : (صوتها مخنوق) سامحني يا ولدي.. لم أكن لك أمّاً جديرة بك، لقد نَزَلت على رأسي ضربة من مطرقة شديدة الوقع عليَّ، وستسامحني يا ولدي إذا عرفتَ أني امرأة مسحوقة تحت هذه الضربة.. (تشير إلى صورة السلطان محمد الفاتح). أرجو الله أن تكون حفيداً لائقاً بهذا القائد المسلم التركي، أن تكون حفيداً تُركياً يحفظ اسم السلطان الفاتح. (وهي تخرج من صدرها علماً أحمرَ فيه الهلال والنجمة): خذ يا بني. وعِشْ لنصرة هذا العلم المسلم. ... عِش في سبيل نصرة الإسلام.. عِش في.. سبيل.. نصرة.. الإسلام.. (تفقد حراكها) يسقط رأسها من على ركبة هليمكوف. المسرح في ضوء خافت.

هليمكوف : (جاثياً بجوار صوفيا، منكفئاً عليها) أمي.. آه يا أمي.. (يبكي يغطي صوفيا بالعلم).

شامتروف : (يتلوّى في الأرض) آ... آ... آ... إني...

هليمكوف : (متعجباً جداً) شامل... أخي!!... أأنت أيضاً قتلوك؟ (يترك رأس صوفيا على الأرض برفق. يجري نحو شامتروف، يمسكه ويرفع رأسه).

شامتروف : (وهو على وشك الموت) أخي.. هذا الرجل.. لا.. يمكن.. أن يكون.. والدنا.. (ينهار).

هليمكوف : (منكفئاً على شامتروف) شامل أخي. انهض يا شامل (يهز جسد شامتروف) شامل، انهض يا أخي.. يا أخي التعيس الحظ. (ينتحب. صوت ناي. هليمكوف متعب جداً. رأسه بين يديه. عزف الناي. ينهض هليمكوف من مكانه ببطء. يتقدَّم نحو صورة السلطان محمد الفاتح. يتوقَّف صوت الناي. يستمر هليمكوف). أخيراً وثقت بهم كلهم. ما قاله أمين علي هو الحقيقة، لكني أنا الذي استيقظت متأخراً.. (يشير إلى صورة السلطان محمد الفاتح) هذا الذكاء، هذه النظرة المسلمة غيَّرت الزمان. لكني أنا.. بعيد عنك. أمضيت سنوات طويلة بدونك، لم أقل مرة واحدة أنا منك وأنت لي (ملتفتاً نحو المشاهدين)، ليتني كنت حجراً وأمسكت بي أول يد مسلمة تسلَّقت أسوار

القسطنطينية عند فتحها، وانغرس فيَّ العلم العثماني الذي رفعه حسن الألوباتلي(١) على أسوار القسطنطينية. (يبكي) لكني أنا، ليتني ما كنتُ هليمكوف وأنا حليم. ليتني كنت ماء ابتلَّت فيَّ السفن التي أنزلها السلطان الفاتح من الأرض إلى البحر، ليتني كنت ماء ابتلَّت فيَّ السفن التي نزلت من الجبل إلى البحر في انتصارات العثمانيين، وشق ظهري الرئيس خير الدين بارباروس في موقعة «بَرَوَزَه».. لكني أنا.. ليتني ما كنتُ هكذا مجبراً على الحياة.. عدواً لشعبي ووطني في داخل وطني.. ليتني ما عشت عدواً.. (وهو يجثو على ركبتيه) ليتني ما عشت. (يتم الجثو على ركبتيه. حركة صوت الناي سريعة. هليمكوف في حالة ذهول وعجز. تدخل تُركان من الباب الأيسر. تكاد تفقد وعيها. وعندما ترى الأجساد ملقاة أرضاً مضرجة في الدماء، تقترب من هليمكوف وهو يحاول أن يستجمع نفسه).

تُركان : خاقان!! (ينظر هليمكوف إليها).

هليمكوف : (ناهضاً، يقترب من تُركان. يُدهش عندما يرى تركانَ مرتدية ملابس الجنود) ما هذا يا تُركان؟ (يشير إلى الملابس) من أين جئت بها يا تُركان؟... تُركان.. إني فقدت كل شيء في لحظة واحدة. وأصبحت وحيداً.

---

(١) حسن الألوباتلي: هو أوَّل مسلم رفع علم جيش الفاتح على أسوار القسطنطينية.

جفَّت كل ينابيع الحب. جفَّت كل الينابيع التي كان يمكن لي أن أحبها وأشمَّها وأحتضنها. شكراً لله رب العالمين أن أهداك إليّ.

تُركان : (متلاحقة الأنفاس) أحد الجنديَّيْن.

هليمكوف : (غاضباً) فليقهره الله.

تُركان : (مستمرة في حديثها) أخذني أحد الجنديين إلى طاحونة مهجورة خارج المدينة. أخذ في البداية يهزأ بي ثم هجم عليَّ (يضغط هليمكوف على يديه بحقد) لوى معصمي وألقى بي في الموقد. عندما لمست يدي رماد الموقد ملأتُ راحتي منه وألقيته على وجه ذلك الخسيس المسعور أمامي. عوى مثل الكلب. (هليمكوف ممتنّ) وقبل أن يفيق خطفت مسدسه وأطلقت النار منه عليه. لم يشك أحد قط في الأمر. لم يخطر على بالي أبداً أني سأراك هنا. غايتي أن أقتل قاتلنا. (ترجو) فلنذهب من هنا يا خاقان، لنهرب من هنا.

هليمكوف : نعم، لنذهب يا تُركان. لنذهب حتى نجد القوة التي نستطيع بها أن نجتثّ جذور هذه النار التي تحرقنا بشدة. غايتنا واحدة. ومبدؤنا معاقبة الخائنين. (يشير إلى بونياتفسكي) وها هي ذي عاقبة الخائنين. وسنعاقبهم يا تُركان إن آجلاً أو عاجلاً. (يقترب من شامتروف يتحسَّس وجهه) أستودعك الله يا أخي. (يرفع العلم ليتطلَّع إلى وجه صوفيا) أستودعك الله يا أمي الغالية. (يتناول المسدس

من على الأرض ويضعه في وسطه، يتَّجهان نحو الباب.
وفي نفس اللحظة يظهر على الباب جنديان آخران غير
الأوَّلَيْن).

واحد من الجنديين: سلِّما.. قتلتما العقيد. سلِّما. (يديران بندقيتهما نحو
هليمكوف وتُركان) سلِّما.

هليمكوف : لا. لن نسلِّم. يسحب تُركان إلى الخلف نعم لقد
سلَّمت سنوات عمري من قبل، ولم تعد لي طاقة على
الاستسلام بعد ذلك. (يسحب مسدسه ويطلق النار.
يموت الجندي الذي كان يوجه لهما نداء الاستسلام. يبدأ
هليمكوف وتُركان في الهرب ليخرجا من المسرح. يطلق
الجندي الآخر النار، فيصيب هليمكوف. يطلق
هليمكوف النار أيضاً فيصيب الجندي. يسقط الجندي
على الأرض. يمسك هليمكوف كتفه. تتأبَّط تُركان ذراع
هليمكوف). كل شيء سيبدأ من جديد (ملتفتاً إلى
المشاهدين)، مات هليمكوف، وقتلوا حليماً وعُمره
لم يتجاوز ست سنوات ونصفاً، لكن خاقان قد وُلد حديثاً،
وسيعيش بعد ذلك.. (يتلوّى. تُمسك به تُركان) إني
ذاهب يا تُركان.. ذاهب إلى المنتظرين.. ذاهب إلى
هؤلاء الذين في استقبالنا.. (بسرور) أيها الشهداء إنَّا
قادمون.. انظري يا تُركان إنهم ينادونني.. (تنطفىء
الأضواء. الكشاف القادم من المواجهة يُسلِّط عليهما.

يفتح هليمكوف يديه ويمدهما في الهواء، وكأنه ينتظر شيئاً سيسقط من السماء. تمسك تُركان به. وتنظر في نفس الاتجاه.. أنشودة البحر الأسود، تتلاطم أمواج البحر الأسود، وينظر هليمكوف إلى العلم التركي الأحمر بهلاله ونجمه، يغلق الستار رويداً رويداً بينما تُعزف هذه الأنشودة.. أنشودة البحر الأسود).

[ستار]

• • •

الفهرس

● ● ●



تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم: دمشق: ص ب: ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية: بيروت: ص ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير

جدة: ٢١٤٦١ ص ب: ٢٨٩٥